
كتابي
١١
الجزء الثاني
البؤساء
فيكتور هيجو
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
حلمي مراد



البؤساء

فيكتور هيجو

الكتاب الثالث

فى سنة ١٨١٧

الفصل الأول

عام ١٨١٧

سنة ١٨١٧ هى السنة التى اطلق عليها لويس الثامن عشر ــ برصانة ملكية لم تخل من زهو وكبرياء ــ السنة الثانية والعشرين من حكمه. وكنت ترى فيها حوانيت باعة الباروكات وقد طليت باللون الأزرق الذى تزينه أزهار الزنبق ، تيمنا بعودة الطائر الملكى . وفى ذلك الحين كنت ترى الكونت لينش LYNCH يحتل مقعد الصدارة كل يوم احد فى كنيسة سان جرمان دى بريه St. GERMAIN-DES-PRES فى كسوة تشريفة كبراء فرنسا ، بوشاحه الأحمر ، وانفه الطويل ، ووقار محيا رجل قام بعمل له دوى . وهذا العمل المدوى الذى قام به الكونت لينش هو هذا : أنه عندما كان عمدة بوردو BORDEAUX فى ١٢ مارس ١٨١٤ بادر بتسليم المدينة إلى الدوق دانجوليم Duc D'ANGOULEME ومن ثم حصل على رتبة كبير من كبراء فرنسا .

وفى سنة ١٨١٧ كان الجيش الفرنسى يلبس البياض على الطريقة النمسوية ، وكانت الآلايات تحمل اسماء المقاطعات بدلا من الأرقام . وكان نابليون منفيا فى سانت هيلانة SAINTE-HELENE ، ولما كانت الحكومة البريطانية ترفض السماح له بقماش من الصوف الأخضر ، لذا كان يقلب بدله القديمة .

وفى سنة ١٨١٧ كان بليجرينى PELLEGRINI يغنى ، وكانت الآنسة بيجوتينى BIGOTTINI ترقص ، وكان يوجد فى فرنسا بروسيون كثيرون ، وكان المسيو ديلالو DELALO شخصية بارزة . وثبتت الملكية الشرعية اقدامها بان قطعت معصم ثم راس بلنييه PLEIGNIER وكاربونو CARBONNEAU وتوليرون TOLLERON وكان الأمير تاليران TALLEYRAND كبير الأمناء «والأبيه لوى» ABBE LOUIS وزير المالية ، وكانا يتبادلان النظرات ويضحكان . فكلاهما كانا فى ١٤ يوليو سنة ١٧٩٠ قد اقاما قداس الاتحاد فى ميدان مارس CHAMP-DE-MARS وقد قدم تاليران هذا القداس بصفته اسقفا ، ولوى بصفته شماسا . وفى سنة ١٨١٧ كنت ترى فى ميدان مارس هذا اسطوانات ضخمة من الخشب ، يغمرها ماء المطر وتتعفن وسط العشب ، وقد طليت باللون الأزرق وعليها آثار نسور نصل تذهيبها. وكانت هذه هى الأعمدة التى ارتفعت فوقها منصة الإمبراطور قبل عامين فى حقل مايو CHAMP DE MAI ، ولكنها كانت قد اسودت هنا وهناك بنيران أوقدها للتدفئة جنود النمسا المعسكرون قرب جرو كايو GROS-CAILLOU . وقد اختفت ثلاثة من هذه الأعمدة وصارت حطبا لهذه النيران واستدفأ بها الجنود ذوى الأيدى الضخمة .

وفى سنة ١٨١٧ كانت مثار اهتمام باريس جريمة دوتان DAUTUN الذى كان قد القى راس اخيه فى حوض سوق الأزهار . كما كانت وزارة البحرية مشغولة بانقطاع اخبار

الفرقاطة لا مديز LA MEDUSE . وكان الكولونيل سيلف SELVES قد توجه إلى مصر لكى يغدو بعد ذلك سليمان باشا الفرنساوى . وقصر تيرم THERMES فى شارع هارب HARPE صار ورشة صانع دنان . وكانت لا تزال ترى على شرفة فى برج قصر آل كلونى CLUNY الحجيرة التى كانت مرصدا لمسييه MESSIER فلكى البحرية الفرنسية فى عهد لويس السادس عشر . وكان العمال فى اللوفر يكشطون الحرف «ن» . وجسر أوسترلتز AUSTERLITZ تغير اسمه وصار جسر حديقة الملك . وحديقة الملك هذه هو الاسم الجديد لحديقة النباتات ! وشطب المعهد الفرنسى L'INSTITUT من قائمة أعضائه الأكاديمى نابليون بونابرت . وصدر أمر ملكى بإنشاء مدرسة البحرية فى انجوليم ANGOULEME ، لانه بما ان الدوق دانجوليم صار الأميرال الأكبر ، فلا بد لمدينة انجوليم ان تصبح ــ بقدرة قادر ــ ميناء بحريا ، وإلا تأذت السلطة الملكية !

وفى هذه السنة تم تزويج اميرة من صقلية إلى الدوق دى بيرى DE BERRYO . وكانت قد مضت سنة على وفاة مدام دى ستايل STAEL . والصحف الكبرى صارت صغيرة . وصغر حجمها ولكن زادت حريتها . وهى حرية الكتاب المأجورين فى الصحف لسب المنفيين سنة ١٨١٥ السياسيين وتشويه سمعتهم ، وعلى راسهم دافيد وارنو ARNAULT وكارنو CARNOT . واما سولت SOULT فلم يفز فى اى معركة ، واما نابليون فكان بلا عبقرية . وكان معروفا ان من

النادر ان يصل اى خطــابات بالبريد إلى شخص منفى ، لأن الشرطة كانت تتكفل بحجزها . وقد اجمع الكل على ان عهد الثورات قد ختم إلى الأبد بتولى لويس الثـامن عشر عرش فرنسا الذى فسخ وابطل كل ما صنعه نابليون ، وقلب القيم العسكرية والادبية حســب اهواء الملكية فى كل المجــالات . وصار اى تعريض — ولو بالنكتة — بالملكية يعاقب بصرامــة بالغة .

وفى هذه السنة ايضا ابتدع اربعة شبان باريسيين ملهاة فذة .

الفصل الثانى

رباعى مزدوج

كان هؤلاء الباريسيون الاربعــة ، احــدهم من تولوز TOULOUSE والآخر من ليموج LIMOGES والثالث من كاهــور CAHORS والرابع من منتوبان MONTAUBAN . ولكنهم كانوا طلبة علم فى باريس . ولذا قيل إنهم باريسيون .

وكان هؤلاء الشبان بلا وزن ولا اهمية ، فقد راى العالم هذا النوع من الشخصيات العادية. فهم عينات لا تتميز بشىء، فلا هم طيبون ولا هم اشرار . ولا هم علماء ولا هم جهلاء ، ولا هم عباقرة ولا هم بلهاء . وجمالهم هو جمال هذا الربيع من العمر الذى هو سن العشرين . وكانت موضة الشبـاب تقليد الإنجليز واهل الشمـال . فمنــذ قليل انتصر ولنجتن WELLINGTON فى ووترلو !

وكانت اســماء هــؤلاء الاربعــة : فليكس تولومييس FELIX THOLOMYES من تولوز ولستولييه LISTOLIER من كاهور وفــامى FAMEUIL من ليموج وبلاشــفيل BLACHEVELLE من منتوبان. وطبعا كان لكل واحد منهم عشيقته . فبلاشفيل كان يحب فافوريت FAVOURITE ، وقد اتخذت هذا الاسم لأنها كانت قد ذهبت فترة إلى إنجلترا .

ولستوليبه كان يعبد داليا DAHLIA التى اتخذت لها اسم هـذه الزهـرة اسما مسـتعارا ، وفـامى كان يهيم بزيفين ZEPHINE هو اختصـار جوزيفين . وتولومييس كـانت عشيقته فانتين FANTINE الملقبة بالشقراء ، لأن شعرها كان بلون الشمس .

وكانت فافوريت وداليـا وزيفين وفانتين اربع فتيـات رائعـات معطرات مشرقـات ، ولكن لم تزل فيهن بقيـة من السمات التى تدل على اصلهن العمالى ، فهن حديثات عهـد بترك الإبرة وانهماكهن فى حياة الحب ، ولذا بقيت على محياهن تلك الطمانينة الخاصة التى تقترن بحياة الجد فى العمل ، ولم تزل فى نفوسهن زهرة الامانة التى لا تبذل فى المراة بعد زلتها الأولى . وكانت من بين الفتيات الأربع واحـدة كانت تسمى الصغيرة ، لأنها كانت اصغرهن واخرى تسمى العجوز ، لأنها كبراهن . وهذه الكبرى كان عمرها ثلاث وعشرون سـنة ! وكانت الثلاثة الكبريات اكثرهن تجربـة ، فهن غير مباليـات ومندفعات وشغوفات بضجيج الحياة اكثر من فانتين الشقراء، التى كانت هذه اول مغامرة لها . اما داليا وزيفين ، وفافوريت على الخصوص فلم تكن هذه اول علاقـة غراميـة لهن . بل سبقت لهن وقائع كثيرة ، مع انهن لم يزلن فى بدايـة روايتهن العاطفية . ولكن العاشق الذى قد يكون اسـمه اودولف فى الفصل الاول من هـذه الرواية . يصبح اسـمه الفونس فى فصلها الثانى ، وجوستاف فى فصلها الثالث . والفقر والفنج مثيران سيئان للفتاة ، وبنات الشعب الجميلات لهن دائما

هذان المثيران اللذان لا يكفان عن الهمس فى الأذنين ، كل منهما من جهته . والنفوس التى لا حارس يصونها من الزلل تصغى للوسوسة وتنقاد لها ، ومن ثم ما يتردين فيـه من عثرات ، وما يرمين به من الأحجار ،وما يتهمن به من انحلال، ويقال لهن كلام كثير رائع عن السـلوك الذى لا غبار عليه والشرف المصون . وأحر قلباه ! وماذا تصنع الفتـاة الفريرة الجميلة إذا عضها الجوع بنابه ؟

ولما كانت فافوريت قد زارت إنجلترا ، لذا كانت موضع إعجاب زيفين وداليا . فهى منذ وقت مبكر جدا صار لها مسكن خاص . وكان والدها استاذا مسنا للرياضيات فيه شراسـة ومحب للزهو والمبالغة ، ولم يتزوج قط ، وظل رغم تقدمه فى السن ماجنا خليعا . وقد حدث لهذا الاستاذ وهو شـاب ان راى ذات يوم ثوب خادمة يتعلق بسـياج مدفاة فيكشف عن المستور من مفاتنها ، فوقع فى غرام هذه المفاتن ، وكانت ثمرة هـذا الهوى النزق فافوريت. وكانت تقابل بين الحين والحين اباها الذى كان يحييها . وذات يوم دخلت عليها فى مسكنها امراة عجوز وقالت لها :

ــ الا تعرفيننى يا آنسة ؟

ــ لا .

ــ انا امك !

ثم فتحت العجـوز البوفيـه ، وشربت واكلت ، واتت بحشية كانت تملكها واستقرت لديها . وكانت هذه الأم كثيرة التذمر ولكنها لا تكلم فافوريت ابدا، وتظل ساعات متواصلة من

غير ان تقول شيئا ، إلا انها كانت تفطر وتتغذى وتتعشى كانها اربعة اشخاص ، وتنزل لتتسامر مع البواب وتغتاب ابنتها عنده !

اما ما جمع بين داليا ولستوليبيه ، وآخرين من قبله ، واغراها بالكسل والبطالة فكان ما تتمتع به من اظافر وردية جميلة . فكيف تهين هذه الانامل بالعمل ؟ ومن تريد ان تحافظ على عفتها ينبغي الا تبقى على جمال يديها ...

اما زيفين فقد اقتنصت قلب فامى بطريقتها المتمردة والمعابثة معا ، وهى تقول :

— نعم يا سيدى !

وكان الشبان الأربعة زملاء . وكانت الفتيات الأربع صديقات وصواحب . تمثل هذه الغراميات تقترن بها دائما مثل هذه الصداقات .

والحكمة والفلسفة شيئان مختلفان . وما يثبت ذلك اننا — مع تحفظاتنا على مثل هذه العلاقات غير الشرعية — نستطيع أن نقول عن فافوريت وزيفين وداليا إنهن فيلسوفات، اما فانتين ففتاة حكيمة .

انقول إنها حكيمة عاقلة ؟ وتولومييس ؟ سليمان الحكيم ربما افتى بان الحب جزء من الحكمة . وبحسبنا ان نقول إن حب فانتين كان اول حب لها . كان حبها الوحيد . كان حبا مخلصا . وكانت الوحيدة من بين الأربع التى لا يرفع الكلفة معها إلا واحد فقط .

كانت فانتين من تلك الكائنات التى ينجبها صميم الشعب. فقد خرجت من جوف احلك ظلمات المجتمع . وقد ولدت فى بلدة « م » . من اى ابوين ؟ من يدرى ؟ فلم يعرف احد قط اما لها ولا ابا . وسميت فانتين . لماذا فانتين ؟ لا احد يدرى . ولكن ما من احد عرف لها اسما سوى هذا الاسم . وكانت طفولتها فى عهد الإدارة الثلاثية، فلم يكن يذكر للمولود اسم عائلى. ولم تكن لها عائلة . وليس لها اسم عماد. فلم يكن للكنيسة فى ذلك العهد وجود ، ولم تكن قد عادت بعد لممارسة نشاطها . فاطلق عليها اول اسم خطر لأول عابر سبيل ان يناديها به وهى طفلة تجرى حافية القدمين فى الطريق . وهكذا هبط عليها اسمها كما كان يهبط عليها ماء المطر من السماء . وعرفتها الكافة باسم الصغيرة فانتين . ولم يكن احد يعرف عنها شيئا اكثر من هذا . وقد اتت هذه المخلوقة إلى الحياة هكذا عفوا . وفى سن العاشرة غادرت فانتين البلدة وذهبت لتعمل خادمة عند فلاحين فى الضواحى . وفى سن الخامسة عشرة جاءت إلى باريس لتبحث عن رزقها . وكانت فانتين جميلة وظلت نقية طاهرة اطول مدة استطاعتها . وهى شقراء جميلة لها اسنان جميلة . وكانت بائنتها من الذهب واللآلىء . ولكن ذهبها كان فوق راسها ، ولآلئها كانت فى فمها .

وعملت لتعيش . وايضا كى تعيش — فللقلب جوعه الخاص به ايضا — عشقت .

عشقت تولومييس .

وكانت هذه العلاقة بالنسبة له نزوة ، وبالنسبة لها

غراما مشبوبا ـ وقد شهدت شوارع الحى اللاتينى التى تموج بالطلاب الغوانى بداية هذا الحلم . وكم من مرة راغت فانتين فى أزقة تل البنثيون ـ حيث تنعقد مغامرات كثيرة وتنفك ـ من تولوميس ، ولكن بحيث تلتقى به ثانيـة . فهناك طريقة للتجنب تشبه التصدى . وأخيرا تم اللقاء الشاعرى .

وكان بلاشفيل ولستوليبه وفامى مجموعة متلازمة على راسها تولوميس . فقد كان هو العقل المفكر الذكى المتوثب . فهو نموذج الطالب العتيق المتقدم نوعا فى السن . وكان غنيا ، يبلغ دخله السنوى أربعة آلاف فرنك ، وذلك شىء جسيم فوق جبل سـانت جنيفييف . ومن حيث الشكل كان تولوميس متغضن الوجه ، فقد بعض اسنانه ، وقد بدا الصلع يدب إليه، إلا انه لم يكن يبالى او ياسى على هـذا ، مع انه كان يعانى ضعفا فى الجهاز الهضمى وإحدى عينيه ينسكب منها الدمع على الدوام . ولكن بقدر انطفاء شبابه ، اتقد مرحه ومجونه ، فكان مجونه بديلا له عن الأسنان ، وكان مرحه بديلا له عن الشعر، وكانت سخريته عوضا له عن الصحة ، وكانت عينيه الباكية لا تكف عن الضحك ! وكانت ملابسه غير مهندمة ، ولكنها من اثمن الأنواع ، وفى عروته دائما زهرة يانعة . فكانما شـبابه المدبر جيش ينسحب بتعبئة ونظـام وروح معنويـة عالية ، وضحكات جنوده تدوى كاهازيج النصر ! وقد الف لمسرح الفودفيل مسرحية رفضت . وكان بين الحين والحين ينظم اشعارا ليست ذات مستوى . إلا انه كان فكريا يشك فى كل شىء باستعلاء ، وهذا نوع من القوة فى نظر الضعفاء . وبما انه كان ساخرا واصلع ، لذا صار الزعيم .

وذات يوم انتحى تولوميس جانبـا بالثلاثة الآخرين ، وقال لهم :

ـ قريبا ستمضى سنة على مطالبة فانتين وداليا وزيفين وفافوريت لنا بأن نقدم لهن مفاجأة . وقـد وعدناهن بذلك . وهن لا يكففن عن تذكيرنا بالوعد ، ولا سيما أنا . وكما كانت النساء العجائز فى نابولى يصرخن بالقديس « يناير » : اصنع معجزة ! اصنع معجزتك! » كذلك تقول حسناواتنا لى دائما : « متى يا تومولييس تلد مفاجأتك ؟ » . . . وفى الوقت نفسه يكتب اهلنا إلينا كى نعـود إليهم . وتحت هذا الضغط من الجانبين شعرت أن الوقت قد حان . فلنتشاور فى الأمر .

وعندئذ خفض تومولييس صوته وقال شيئا غامضـا بمرح شديد ، ثم قهقه الشبان الأربعة معا ، وصاح بلاشفيل:

ـ يا لها من فكرة !

وبدت لهم فى الطريق حانة ملآنة بالدخان ، فدخلوها ، وفى ظلالها المعتمة تمت مشاورات مؤتمرهم .

وكانت ثمرة هذه المعميات رحلة متعة وقصف تمت يوم الأحد التالى ، دعا إليها الشبان الأربعة الفتيات الأربع .

الفصل الثالث

أربعة لأربعة

اعد « الازواج » الاربعة فى ذلك اليوم على كل ما يخطر بالعقل من اللهو المنطلق فى حقول الريف بالقرب من باريس . وكان يوما حارا من ايام الصيف فى بداية العطلة الدراسية ، لا تلبد سماءه السحب . وفى اليوم الســابق كتبت فافوريت — وهى الوحيدة التى تعرف الكتابة — رسالة إلى تومولييس باسم الفتيات الاربع ، قالت فيها « الخير فى البكور » ، ولذا نهضوا من نومهم فى الخامسة صباحا ، ثم ذهبوا إلى سان كلو SAINT-CLOUD ، ونظروا هنـاك إلى الشلال الذى كان جافا ، وتصايحوا :

— لا بد ان منظره كان بديعا حين كان فيه ماء !

ثم تناولوا الافطـار فى مطعم « الراس الاسود » ، ثم جروا فى الحقول والمراعى ، فقد كانت هـذه المنطقة يومئـذ خلوية ، وقطفوا الازهار من المروج ، واشتروا نايات من نيى NEUILLY واكلوا تفاحا اشتروه من البائعات الجائلات ، وكانت سعادتهم على اتمها .

وكانت الفتيات الاربع يصخبن ويثرثرن كانهن حيوانات ضارية اطلقت من اقفاصها . فكان لهن زئاط جنـونى . وكن احيانا يوجهن ضربات مزاح إلى عشاقهن، فكانما هن مخمورات

برحيق الحياة فى صدر الصباح ! ويا لتلك السنوات البله من صدر الشباب ! وانت ايها القارىء كائنـا من كنت اتذكر من ايامك شبابا كهذه الأيام خلعت فيها العذار ؟ اتذكر سيرك بين الآجام ، وانت تزيح الأغصان كرامة للراس الجميل المحبوب الذى يسير وراءك ؟ هل انزلقت وانت تضحك فوق منحـدر بللته مياه المطر مع امراة تتعلق بيدك وتصيح متذمرة :

— حسرتى على حذائى الجديد ! فى اى حال أصبح !

ولكن لنقل منذ الآن ان المطر لم يهطل فى ذلك اليوم على تلك الجماعة الطـروب ، وإن كانت فافوريت قالت بلهجـة العليمة ببواطن الطبيعة :

— ارى البزاقات تتمشى فى الدروب . وهذه علامة على قرب سقوط المطر !

وكانت الفتيات الأربع كلهن فاتنات ، وقد زادهن الحبور والزياط فتنة . وفى ذلك اليوم كان شاعر تقليدى مسن مشهور يومئذ هو الشيفالييه دى لابويس DE LABOUISSE يتنزه تحت أشجار الكستناء فى سـان كلو ، ورآهن وهن يخطرن امامه برشاقة فقال :

— فيهن واحدة اكثر مما ينبغى .

ويعنى بذلك الاشـارة إلى عـرائس الفن الثلاث المشهورات فى الأساطير . وكانت فافوريت . صاحبة بلاشفيل ابنة الثالثة والعشرين — كبراهن — قـد جرت امامهن تحت

الاغصان الخضر ، ووثبت فوق المساقى وتسلقت شجيرات الدغل ، وتزعمت المرح كأنها حيوان مفترس فتى . أما زيفين وداليا فكانتا لا تفترقان، وبين جماليهما تكامل . وكان تلازمهما من قبيل الدل اكثر مما هو بحكم الصداقة . وكانتا تتخذان اوضاعا على الطراز الإنجليزى الذى شاع بين الغوانى. وكان هناك نقاش محتدم بين لستوليبه وفامى حول أساتذتهم ، وراحا يشرحان لفانتين الجادة الفرق بين المسيو دلفنكور DELVINCOURT والمسيو بلوندو BLONDEAU .

اما بلاشفيل فكأنما خلقه الله خصيصا لكى يحمل على ذراعه يوم الأحد شال فافوريت .

وفى المؤخرة اقبل تولوميبس ، الذى كان يتزعم المجموعة ويسيطر عليها . اجل إنه كان شديد المرح ولكنك كنت تلمس فيه السيطرة . فتحت غلالة مرحه ومجونه تربض دكتاتورية. وكان ملبسه الأساسى بنطلونا له ساقا فيل ، وفى يده عصا من الخيزران الثمين ثمنها مائتا فرنك . ولما كان رجلا يبيح لنفسه كل شىء ويدللها ، لذا كان فى فمه شىء غريب يومئذ هو السيجار . ولم يكن يحترم شيئا أو يقدس قيمة . وينفث الدخان من فمه بلا انقطاع . اما الآخرون فكانوا يرمقونه باعجاب وإجلال ويقولون :

ـ ما أروع تولوميبس ! يا لبنطلونه ! يا لحيويته !

اما فانتين فكانت روح الفرح ، واسنانها البديعة قد حباها الله ولا شك بمهمة فى هذه الدنيا ، هى الضحك ! وكانت

تحمل فى يدها قبعة صغيرة من القش ، اكثر مما تضعها فوق راسها ، تتدلى منها ضفائر بيضاء . وشعرها الأشقر الغزير يتطاير ويتماوج ، فكان لا بد لها من ضمه بين حين وحين ولم شعثه ، فكأنما هو شعر غلاطية الأسطورية وهى تفر هاربة تحت اشجار الصفصاف . وكانت شفتاها الورديتان تتمتمان باغنية خافتة ، وشكلها العام كالبرعم الذى يدعو الناظرين للاجتراء كأنما فى فمها الجميل نداء خفى للاغراء . ولها اهداب طويلة وطفاء تلقى ظلالا على خديها . وثيابها توحى بالخفة والرشاقة ، كأنما هى تغريدة طيور متوهجة الريش ، ولكن فى احتشام يوحى بالاحترام .

اما الثلاث الأخريات فكن اقل منها حياء ، ولذا كانت اثوابهن اكثر فتحات بحجة حر الصيف . وقبعاتهن مغطاة بالأزاهير . وكان الفرق بينهن وبين فانتين واضحا . ففانتين جميلة إذا نظرت إليها من امام ، رقيقة إذا نظرت إليها من احد جانبيها ، وعيناها لونهما أزرق عميق ، وقدماها صغيرتان ، والمعصم والكاحل مدملجان . ولشدة بياضها ورقة بشرتها كنت ترى هنا وهناك شعيرات عروقها الزرقاء ، وخداها فيهما نضارة الطفولة ، وعنقها قوى . وقامتها كأنما صاغها مثال ، فى جاذبية ورقة . وهكذا كانت فانتين ، متى رأيتها رسم لك خيالك تحت ثيابها تمثالا ، وفى هذا التمثال البديع روح ...

كانت فانتين جميلة من غير ان تشعر بجمالها . وخبراء الجمال الذين يحبون أن يقيسوا كل جمال يرونه بمثلهم الأعلى

كانوا خليقين ان يروا فى هذه العاملة الصغيرة ، تحت شفافية
الرشاقة الباريسية كل الوسامة الكلاسيكية المقدسة . فهذه
الفتاة المجهولة الأصل كانت تنبىء عن عراقة كعراقة الخيول
الاصيلة ، وكانت جميلة قالبا وإيقاعا . اما القالب فهو هــذا
الشكل المثالى المتناسق . واما الإيقاع فهو الحركة الهفهافة
الرفافة .

ولقد قلنــا آنفـا إن فانتين كانت روح المــرح والفرح
والبهجة . ومن الحق ان نقول ايضا انها كانت الحياء . فمن
يرقبها عن كثب ويدرسها بإمعان ، كان حريا ان يلمس فيهــا
من خــلال خمر الشــباب وخمر الربيع وخمر الحب والهيام
تعبيرا قاهرا طاغيا عن التحفظ والحياء والتواضع . فقد ظلت
وسط هذا الزياط تبدى شيئا من الدهشة . وهــذه الدهشة
الطاهرة هى الســمة التى تميز بسيشيه PSYCHEE (اى
النفس) عن فينوس . وكانت اصابع فانتين طويلة بيضــاء
رقيقة كأنها اصابع كاهنة قديمة تحرك رماد النار المقدســة
بدبوس من الذهب . ومع أنها لم تكن تضن بشىء على تولومييس
او تمنع عنه شىء — وهذا واضح لذى عينين — إلا ان وجهها
وهى ساكنة فيه أمارات العذرية ، وكان لون من الوقار الجاد
الذى يوشك ان يكون صارما يعتريها فى ساعات معينة فجاة .
فيؤثر فى نفس من يراها نضوب المرح على حين غرة دفعة
واحدة ، لتحل محله الجهامة ، من غير ان تتوسطهما فتــرة
انشراح . وكانت هــذه الصرامة تشــبه احيانــا تعالى ربة
اسطورية . ويبدو عندئذ التوازن الفذ بين جبينها وانفهــا

وذقنها ، وهو توازن متميز تمامــا عن توازن التناسب الذى
ينجم عنه تناسق الوجه . وفى المســافة التى تفصــل قاعدة
الأنف عن الشفة العليا كان هنـــاك خط لا تكاد تراه العين ،
يزيدها فتنة ، لانه العلاقة الخفية للطهــر . فلئن كان الحب
زلة ، فقد كانت فانتين هى البريئة الطاهرة التى تطفو فوق
سطح هذه الزلة .

الفصل الرابع

تولوميس فى قمة البهجة حتى أنه تغنى بأغنية اسبانية

وكان ذلك النهار كله من اوله إلى آخره نسـيجا ممتدا من الفجر . فكأن الطبيعة كلها فى يوم عطلة ، فهى ضاحكة ، ومروج سان كلو كلها معطرة ، ونسمات السين تحرك اوراق الأشجار ، والأغصان تلوح وتتهادى مع الريح ، والنحل ينهب الياسمين ويسلبه رحيقه ، وقافلة من الفراشات تتهافت على الأزهار والنباتات . وكان فى حديقة الملك البـاهرة قطيع من الأفاقين ، هى العصافير .

وجعل « الأزواج » الأربعـة يمرحون كالمجـانين بين الشمس والحقول والأزهار والأشجار والأطيار . وفى هـذا الفردوس راحت الفتيـات يتحدثن ، ويغنين ، ويرقصـن ، ويجرين ، ويطاردن الفراشـات ويقطفن الأزاهير ، ويبللن جواربهن المطرزة بين الأعشـاب الطويلة ، وهن كالمجنونات من المرح والفرح ، وتنهال عليهن القبـلات بلا تمييز من كل الشبان . فيما عدا فانتين التى بقيت متحصنة داخل مقاومتها العنيدة الحالمة ، لأنها كانت عاشقة ــ وقالت لها فافوريت :

ــ انت دائما تبدين جادة .

وهذه هى الأفراح ، وكان مرور هؤلاء الأزواج السعداء نداء عميقا موجها إلى الحياة وإلى الطبيعة ، يسـتخرج من



وتنهـال عليهن القبـلات بلا تمييز من كل الشبان . فيما عـدا فـانتين التى بقيت متحصـنة داخل مقـاومتها العنيـدة ..

الجميع الملاطفة والمداعبة والنور . فقد كانت ــ فيما يقال ــ هناك جنية صنعت المروج والأشـــجار خصيصا للعاشقين ، ومن ثم حب العشاق للخلوات والمروج ، وهرب التلاميذ من المدارس إليها . وسيظل الحال هكذا ما بقيت هناك مدارس وحقول وادغال . ومن ثم شهرة الربيع المحبب إلى المفكرين . فالثرى ومن رزقه الكفاف ، والدوق والعامى، ورجال القصور واهل المدن ، كلهم رعايا هـــذه الاعيـــاد الطبيعية . فالكل يضحكون ويلعبون ، وفى الهواء صفاء كصفاء الألوهة . الا ما ابهى الحب وما اقدره على تغيير الناس! فاذا الكتبة والموثقون آلهة ! والصرخـــات الصـــغيرة والتعقب بين الأعشـــاب ، واقتناص الخصور التى تصهرها الأذرع العاشقة ، والكلمات المتطايرة كالتغريد ، وحبات الكرز التى تنتقل او تنتزع من فم إلى فم ــ كل هذا يتلألأ وسط هـــذا المهرجان السماوى ! والحسناوات يتركن انفسهن نهبـــا للهائمين بهن ، والجميع يعتقدون ان هـــذا لن ينتهى ابدا . والفلاسفة والشـــعراء والرسامون ينظرون إلى هذه النشـــوات ولا يعرفون مـــاذا يصنعون بها او يفهمون منها . ولكنها تبهرهم .

وبعد الإفطـــار ذهب الأزواج الاربعـــة ليروا فيما كان يسمى يومئذ مربع الملك شجرة جلبت حديثا من الهند، لا نتذكر الآن اسمها ، وكانت هذه الشجرة تجتذب فى تلك الأيـــام كل اهل باريس لمشاهدتها فى سان كلو . وهذه الشجرة تتفرع فوق ساقها فروع كثيرة رفيعة كالخيوط لا يحصيها العـــد ، وتغطى هذه الغصون التى لا اوراق لهـــا ملايين الأزهـــار

البيضـــاء ، فكان الشـــجرة تاج من الشعر الغزير المغطى بالأزاهير ، ومن حولها دائما جمع غفير ينظر إليها ويعجب بها.

ولما فرغوا من مشاهدة الشجرة ، صاح تولومييس :

ــ انا ادعوكم لركوب الحمير على نفقتى .

ولما يتم الاتفاق على الأجر مع مكارى ، ركبـــوا الحمير على طريق فانفر VANVRES وايسى . ISAY وفى إيسى وجدوا الحديقة الكبيرة التى صارت الآن ملكية عامة ، وكانت فى ذلك العهد مملوكة لصانع الذخيرة بورجان BOURGUIN ، مفتوحة على مصراعيها ، فدخلوها وجاســـوا بين اركانهـــا العجيبة ، وزاروا حجرة المرايا الشهيرة ، ثم ذهبوا إلى تلك الحبال المعلقة بين فروع اشجار الكستناء ، فصارت تستخدم ارجوحات للاطفال . ولكنها اليوم صارت ارجوحات للغوانى الاربع ، وكان واحد من الشبان يؤرجح صاحبته على التوالى وهن يضحكن من قلوبهن . وترتفع مع ضحكاتهن ذيولهن فى الهواء. وانتشى تولومييس التولوزى بهذا المنظر، واهل تولوز فيهم دماء اسبانية ومدينة تولوز ابنة عم تولوزا TOLOSA الاسبانية ، فاستخف الطرب تولومييس وغنى اغنية اسبانية قديمة اسمها جاليجا GALLEGA . لعل الشاعر الأسبانى القديم استلهمها من حسناء كانت تتارجح بكل قوتها على حبل معلق بين شجرتين فى مروج الأندلس .

ولم ترفض ركـــوب الأرجوحـــة إلا فانتين ، التى قالت بضيق واضح :

ــ انا لا احب هذه الالاعيب ...

وترجل الثمانية عن الحمير وتركوها للمكارى ، وحظوا بمتعة من نوع جديد، فعبروا السين فى قارب. ونزلوا فى باسى PASSY ومشوا سيرا على الأقدام إلى حانة الإتوال . وهناك تذكروا انهم ظلوا وقوفا على اقدامهم منذ الخامســة صباحا . وعلقت فافوريت على ذلك بقولها :

ــ ولكن لا محل للتعب فى يوم الأحـــد . فالتعب لا يعمل يوم الاحد !

وفى نحو الســـاعة الثالثة مضى الجميع يجرون أقدامهم إلى الجبال الروسية ، وهى صرح غريب الشكل كان يحتل فى ذلك الحين مرتفعات بوجون BEAUJON وتشاهد تموجاته المتعرجة من فوق اشجار الشانزليزيه .

وبين الحين والحين كانت فافوريت تصيح :

ــ وأين المفاجاة ؟ اريد المفاجاة .

فيجيبها تولومييس :

ــ صبرا . صبرا .

الفصل الخامس

عند بمبردا

وبعد الفراغ من الطواف بالجبال الروسية ، بدا التفكير فى الغداء. وقصد الثمانى السعيد إلى حانة بمبردا BOMBARDA ، وهى ملحق اقامه هذا المطعم المشهور فى الشانزليزيه ، وكانت لافتته ترى فى شارع ريفولى بجوار ممر ديلورم DELORME.

وفى حجرة كبيرة ولكنها قبيحة ، بهـــا فى الصـــدر خلوة وفراش (ونظرا لازدحام الحانة فى يوم الأحد لم يكن للثمانى به من قبول هذا المكان) ولهـــا نافذتان يمكن منهمـــا ، من وراء اشجار الداردار ، رؤية الضفة والنهر ، وشـــعاع شمس اكتـــوبر يداعب هاتين النافذتين ، وبالحجرة مائدتان فـــوق إحداهما ، جبل من باقات الأزهار وقبعات الرجال والنساء . وإلى المائدة الأخرى جلس الثمانى حول زحـــام من الأطبـــاق والأكواب والزجاجات ، وقدور الجعة التى تزاحمها قوارير النبيذ . وامكن تدبير شىء من النظام فوق المائدة ، مع شىء من الفوضى من تحتها . وكما قال موليير :

« كانت لهم تحت المـــائدة ضجة » .

« كضجة النرد من تزاحم الأقدام وتراكبها ! » .

وهكذا انتهت فى الرابعة والنصف مساء تلك الرحلة التى بدات فى الخلاء فى الخامسة صباحا . ومع جنـــوح الشمس

للمغيب ، اخذت الشهية الجائعة تخمد بالوان الطعام والشراب .

وكانت الشانزليزيه مغمورة بالشمس ومزدحمة بالناس ، كأنها كتلة من الضياء والغبار ، وهما العنصران اللذان يتكون منهما المجد ، وجياد مارلى MARLY ، من الرخام الصاهل ، كأنها تتواثب وسط سحابة من الذهب . والعربات التى تجرها الخيول المطهمة تروح وتغدو ، وكتيبة من جنود الحرس يتقدمها نافخ البوق تهبط إلى هناك من شارع نيى NEUILLY ، والعلم الأبيض الذى صبغته الشمس الغاربة بلون وردى خفيف يرفرف فوق قبة التويلرى TUILERIE . وميدان الكونكورد الذى صار اسمه مرة اخرى ميدان لويس الخامس عشر غاص بالمتنزهين المنشرحين . وكثيرون من الناس كانوا يحملون زهرة زنبق من الفضة معلقة فى شريط ابيض من الحرير المموج الذى لم يكن قد اختفى بعد فى سنة ١٨١٧ تمام الاختفاء من الصدور . وهنا وهناك كانت الفتيات الصغيرات يتراقصن فى حلقات وسط الناس وهن يصفقن بايديهن ويتغنين باغنية كانت شائعة يومئذ تنديدا بحكم المائة يوم .

وكان كثير من العمال فى ثياب يوم الاحد يلبسون زهرة الزنبق مثل ابناء الطبقة الوسطى . ويمرحون فى المنازه ويركبون الأحصنة الخشبية التى تدور بهم وهم يضحكون ، وكثيرون غيرهم يشربون ، وبعض صبيان المطابع يرتدون على رءوسهم قلانس من الورق وتعلو ضحكاتهم . فالجميع كانوا مشرقين . فقد كانت هذه الفترة فترة سلم لا خلاف عليه وتسودها طمأنينة

ملكية . وعن هذه الفترة كتب مدير الشرطة انجليس ANGLES إلى الملك تقريرا بشأن ضواحى باريس العمالية ختمه بهذه السطور :

— وإذا نظرنا إلى جميع الاعتبارات يا مولاى تبين لنا انه لا خوف من جهة هؤلاء الناس . فهم غير مكترثين ووادعون مثل القطط . ولئن كانت جماهير الغوغاء فى الأقاليم مشاغبة ، فما هكذا جماهير غوغاء باريس . فكلهم من صغار الناس وقصار القامة ، بحيث يبلغ حجم اى واحد من جنود مولاى حجم اثنين منهم . فلا خوف إطلاقا من جهة جماهير باريس . ومن الملاحظ ايضا ان القامات قصرت عموما فى هذه الجماهير منذ خمسين سنة . وسكان ضواحى باريس اقصر قامة مما كانوا قبل الثورة . فلا خوف من هذا الجمهور ، فهم ليسوا مصدر خطر . فما هم إلا سوقة طيبون !

ويعتقد مديرو الشرطة أن القط لا يمكن ان يتحول إلى اسد . ولكن هذا يمكن أن يحدث ، بل وحدث فعلا . وهذه هى معجزة شعب باريس . ولقد كان القط — الذى يزدريه الكونت انجليس بهذه الصورة — معبودا قديما للقدماء ، وكانوا يرون فيه رمز الحرية . وفى مقابل تمثال مينرفا فى بيريه PIREE كان يوجد تمثال هائل من البرنز لقط فى ميدان عام بكورنثوس. ولكن شرطة الملكية العائدة إلى فرنسا كانت ترى شعب باريس بمنظار جميل . ولكنه ليس من السوقة الطيبين على الاطلاق . فالباريسى بالقياس إلى الفرنسى بمثابة الأثينى بالقياس إلى اليونانى . وما من احد ينام اعمق من نوم الباريسى ، ولا احد اكثر منه خفة ولا اميل للدعة والكسل ،

ولا احد يباريه فى النسيان . ولكن حذار من الاعتماد الأعمى على هذه المظاهر ، فهو مسرف فى عـــدم المبالاة ، ولكن متى تبين له هدف مجيد ، غلت مراجل غضبه . وإن اتيحت له الحراب صنع بها العاشر من أغسطس ، وإذا اتيحت له البنادق صنع بها استرلتز . فهو الذى ارتكز عليه نابليون ، واعتمد عليه دانتون . وإذا تعرض الوطن للخطر تدافع إلى الانخراط فى الجيش . وإذا تعرضت الحرية للخطر راح يخلع بلاط الشوارع ويقيم المتاريس .فاحذروه ! لأن قميصه يتحول فجاة إلى ثوب عسكرى ، وشعره يتحول عندما يغضب إلى اشواك . وهذا العامل القزم يتحول فى ساعة الخطر إلى عملاق ، وتتحول انفاسه الوادعة إلى عاصفة هوجاء ، فترى هذه الصدور العجفاء تطلق رياحا تكفى لزلزلة ثنايا جبال الألب . وبفضل هذا العامل الباريسى ساكن الضواحى امتزجت الثورة بالجيش وتمكنت من اكتساح اوربا . ولئن تغنى فهذه متعته وفرحه . ولكن قس اغانيه إلى طبيعته الجياشة تر عجبا ! واطلب إليه ان ينشد المارسييز ، تره يحرر العالم من الطغاة !

اما وقد سجلنا هذا التعليق على تقرير الكونت انجليس، فهيا بنا نعد إلى اصحابنا الثمانية ، وقد اوشك الغداء على الانتهاء

الفصلُ السادس

وهو فصل يسوده الهيام حتى العبادة

احاديث المائدة واحاديث الغرام . كل منهما امور غير ملموسة . فاحاديث الحب سحب ،واحاديث المائدة دخان . .

وكان فامى ودااليا يدندنان . وتومولييس يشرب، وزيفين تضحك ، وفانتين تبتسم . ولستوليه كان ينفخ فى نفير من الخشب اشتراه فى سان كلو . وفافوريت كانت ترمق لاشفيل برقة وتقول بهيام :

ــ بلاشفيل ! انا اعبدك !

جر هذا القول بلاشفيل إلى سؤال :

ــ وماذا ترينك صانعة يا فافوريت لو كففت عن حبك ؟

فصاحت فافوريت (ومعناها بالإنجليزية المفضلة او المحظية) :

ــ انا ؟ لا تقل هذا ، ولو على سبيل الضحك ! لو كففت عن حبى قفزت وراءك ، وخمشتك وقذفتك بالماء ، وجعلتهم يقبضون عليك !

فابتسم لاشفيل فى زهو شهوانى لهذا التملق لغروره . واستطردت فافوريت :

ـ اجل ! اصرخ واستدعى الحرس ليقبضـــوا عليك ! لن اتوانى عن شىء ايها الخسيس !

وانتشى بلاشفيل بهذه العبارات ، واضطجع فى كرسيه واغمض عينيه بكبرياء .

وقالت داليا لفافوريت ـ وهى تأكل ـ وسط هــذه الضجة :

ـ اتعبدينه إذن جدا ، صاحبك هذا بلاشفيل !

فقالت فافوريت همسا ايضا وهى تتناول شوكتها :

ـ انا ؟ امقته ! فهو بخيل . واحب شابا يافعا يسكن فى مواجهة شقتى . فهو شاب لطيف جدا . اتعرفين ؟ ان سيماه تدل على انه يصلح ممثلا . وما ان يعود إلى البيت حتى تقول امه : « رباه ! لا سبيل لى الآن إلى الراحة والهدوء . ها هو قد شرع فى الصياح ! انك تصدع راسى ! » ذلك انه يطوف ارجاء البيت ومخازن الغلال والمئونة ، وهو يرفع عقيرته إلى اعلى مستوى بالغناء، حتى ان الجميع يسمعونه اسفل البيت، ويتقاضى هذا اليافع اجرا قدره عشرون صلديا فى اليـــوم من مكتب موثق ينسخ له العرائض . وهو ابن مغن قديم . آه ! كم هو لطيف ! وهو يحبنى حب العبادة حتى انه لما رآنى ذات يوم اعد عجينة لصنع لقمة القاضى قال لى « ياآنسة ! اصنعى يوما ما من قفازك زلابية وسآكلها ! » وهذا كلام لا يقول مثله إلا فنان ! آه ! كم هو لطيف ! وانـــا فى طريقى إلى الخبل بحب

هذا اليافع . ولكنى مع هذا اقول لبلاشفيل إنى احبــه حب العبادة ، وهذا كذب طبعا ! كم أنا كذابة !

وسكتت فافوريت برهة ثم أدرفت :

ـ داليا . أنا حزينة ! فالمطر لم ينقطع طول الشتاء ، والهواء يضايقنى . وبلاشفيل بخيل جدا . والخضراوات فى هذا الموسم الحار الممطر قليلة ،ولا نعثر على البازلاء الخضراء إلا بصعوبة ، فلا ندرى ماذا نأكل . واعانى من الكآبة كمـــا يقول الإنجليز . والزبد غال جدا ! ثم انظرى حولك ! إننـــا نتغدى فى مكان به خلوة وفراش . وهذا كاف لإثارة تقززى من الحياة .

الفصل السابع

حكمة تولومييس

وفيما كان البعض يغنون ، والآخرون يتحدثون بصخب فى آن واحد، حتى تحول كل شىء إلى ضجة، تدخل تومولييس صائحا :

ــ لا يجوز ان نتحدث هكذا بطريقة عفوية وبهذه السرعة المفرطة . ولنتأمل فيما نقول إن اردنا ان نكون باهرين . ذلك ان الارتجال المسرف يفرغ الفكر فى بلاهة . الا ترون أن الجعة التى تسـيل لا يتجمع لها ابــدا زبد ؟ لا داعى للعجلة أيها السادة ، ولنمزج الشبع بالمهابة والجلال . ولنــأكل باناة ، فالبطء زينة المآدب . ولنتمهل . وانظروا إلى الربيع ، كم هو متمهل . اما الاسراع فإنه يفسد اشجار الخــوخ واشــجار المشمش . والانكباب على الأكل يقتل الرشاقة ويقضى على بهجة الغداء الجيد ، لا تسرعوا يا سادة . وجريمـــون دى لارينيير GRIMON DE LA REYNIERE يتفق فى هذا مع تاليران !

فثارت عاصفة من التذمر بين الجماعة . وقال بلاشـفيل:

ــ تولومييس ! دعنا فى هدوء !

وصاح فامى :

ــ فليسقط الطاغية !

وصاح لستوليبه هازلا :

ــ بمبروا . بمبانس ! بمباش !

وعاد فامى يقول :

ــ اليوم الأحد .. يوم عطلة !

وقال لستوليبه :

ــ نحن ما زلنا فى حالة صحو . لم نسكر بعد !

وقال بلاشفيل :

ــ انظر كم انا هادىء !

وصاح تومولييس :

ــ اصغوا لى . لا بد من حدود لكل شىء . حتى للغداء! فالبطنة تحمل فى طياتها عقاب الشره . وعسر الهضم عقوبة إلهية للمعدة التى تسىء انتهاز الفــرص . وكل شـــهوة من شهواتنا ، حتى شهوة الحب ، لها أيضا معدتها التى ينبغى الا نملأها حتى تكتظ . ولا بد أن نكتب فى الوقت المناسب كلمة النهاية ، ونحكم الرتاج على شهواتنا الجشعة . فالحكيم هو الذى يعرف متى يكف نفســـه عن الاســـترسال فى الوقت المناسب . ولتكن لكم فى ثقة ، فقد درست القانون ، كمـــا تقول ذلك امتحاناتى وتشهد به . وقد أعددت رســـالة عن وسائل التعذيب فى عهد اباطرة الرومان لكى احصـــل على الدكتوراه . ولكن حصولى على هذا اللقب لا يدل بالضرورة ــ كما هو معهود فى معظم اصحاب هذا اللقب ــ على انى ابله ! فاصغوا لكلامى وانا اوصيكم بالاعتدال فى رغباتكم . فانا اقول الحق وانصحكم بما فيه خيركم . وطوبى لمن استطاع

عندما تحين الساعة ان يقدم على عمل بطولى ، ويتنحى مثلما تنحى سيلا SYLLA او اوريجين ORIGENE .

وكانت فافوريت تصغى لهذا الكلام بانتبـــاه عميق ، فقالت :

— طُوبى ! يالها من كلمة جميلة ! انا احب هذه الكلمة . وهى كلمـــة فصـــيحة تقـــابلها فى لغتنـــا العـــادية كلمـــة سعيد PROSPER ...

واستطرد توموليييس :

— يا صحابى ! اتريدون الا تخشوا وخز الشهوة وان تهجروا فراش العرس وتتحدوا الحب ؟ ما من شىء اسهل من هذا . هاكم وصفة الطبيب الخبير : الليمونادة ، والانهماك فى الرياضة والمشى ، والعمل الشاق ، ولو بجـــر الأحجـــار ودحرجتها . ولا تناموا . اسهروا ! وعيشوا على تغـــذية كطعام النساك ، وجوعوا ، وخذوا حمامات باردة .

فقال لستولييه :

— هذا فظيع ! النساء افضل !

فقال توموليييس :

— المراة ! حذار من المراة ! يا سوء مصــــير من يسلم نفسه لقلب المراة المتقلب ! فالمراة غادرة ملتوية ! وهى إنما تكره الحية بدافع الغيرة المهنية! فالحية هىالحانوت المواجه!

فصاح بلاشفيل :

— توموليييس ! انت سكران !

فقال توموليييس :

— لا تقل هذا !

فقال بلاشفيل :

— إذن كن مرحا .

فأجابه توموليييس :

— وهو كذلك ! موافق !

ونهض فملأ كأسه ورفعه وانشأ يقول :

— عاش القيصر الذى كان عظيما ، وكان حذاؤه اعظم منه ! وانتن أيتها السيدات ! إليكن نصيحة صديق : اخلطنها بين الجيران، إن حلا لكن هذا . فمزية الحب هى هذا الخلط ، وهذا الخطأ . ولم يخلق الحب للجد والجهامة كانه خادمة إنجليزية . بل خلق الحب كى يهزل ويخطىء بمرح! ولئن قيل ان الخطأ سمة البشر، فانا اقول إن الخطأ سمة العشق والهوى! آه يا سيداتى! انى أعبدكن جميعا. أوه يازيفين! ياجوزيفين! كم تكونين فاتنة حين لا تتجهمين . ولك وجه جميل لولا انهم جلسوا فوقه ســـهوا فتفرطح . اما فافوريت ! فهى اشـــبه بالحوريات وعرائس الفنون ! وذات يوم عندما كان بلاشفيل يجتاز جدول شارع جيران بواسو راى فتـــاة حســـناء ذات جورب ابيض تكشف عن ساقيها لتجتاز الجدول ، فاعجبه هذا الاستهلال ، ووقع بلاشفيل صريع الحب . وكان من احبها هى فافوريت . يا فافوريت ! ان لك شفتين ايونيتين (من ايونيا ببلاد اليونان) . وكان هناك رسام اغريقى اسمه ايفوريون EUPHORION لقبوه باسم رسام الشفاه . وهـــذا

الرسام الإغريقى وحده هو الجدير برسم ثغرك ! اسمعى !
لم تكن قبلك فتاة جديرة باسم فافوريت (المحظية) .

فأنت الجديرة بأن تتلقى التفاحة مثل ڤينوس ، او بأكلها
مثل حواء . فالجمال يبدأ بك . وقد ذكرت الآن حواء ، وأنت
التى خلقتها او تجسدينها . فأنت تستحقين براءة اختراع
المرأة الجميلة . ولكن علينا الا ننخدع بالأسماء ، لانها قد
تخطىء . فأنا اسمى فليكس (السعيد) ولست سعيدا .
فالأسماء تكذب . وعلينا الا نتقبل مغمضى الأعين ما تدل عليه .
ومن الخطا ان نكتب إلى ليبج للحصول على فلين ، او إلى
بو PAU للحصول على قفازات . اما انت يا آنسة داليا ،
فلو كنت مكانك لجعلت اسمى روزا (وردة) . فينبغى أن
تكون الزهرة ذات عبير ، وان تكون المرأة ذات ذكاء لماح .
اما فانتين فلا اقول عنها شيئا ، فهى حالمة دائمة التفكر
وحساسة . إنها شبح يتخذ شكل حورية وله خفر راهبة ،
وليس مكانها بين الغوانى ، لانها تعيش على الأحلام والأوهام،
وتغنى ، وتصلى ، وتنظر إلى زرقة السماء من غير أن تدرى
ماذا ترى ولا ماذا تصنع ، وفيما هى تحرق فى السماء تجوس
خلال حديقة هجرتها الطيور والعصافير . يا فانتين ،
الا فاعلمى اننى — انا تومولييس ! — لست إلا وهما . ولكنها
لا تسمعنى ، ابنة الأوهام الشقراء هذه . ومع هذا فكل
ما فيها نضرة ، ونكهة ، وشباب وعذوبة صباح مشرق !
يافانتين ! ايتها الفتاة التى كانت تستحق ان تسمى مرجريت
او لؤلؤة ، انت ابنة من اجمل بنات المشرق ! ايتها السيدات !
إليكن نصيحة اخرى ، لا تتزوجن ابدا . فالزواج طعم ،إما ان

ينجح او يفشل . فاحذرن هذه المجازفة . ولكن ماذا عساى
كنت اقول ؟ إنى استودع اقوالى أدراج الرياح ! فالفتيات
مخبولات لا شفاء لهن من جنون الزواج . وكل ما نستطيع
ان نقوله نحن الحكماء لن يمنع من يحبكن الصدارات الصوفية
من ان يحلمن بأزواج اثرياء يملكون تلال الألماس . ليكن .
ولكن اسمعن نصحى على الأقل . إنكن تأكلن السكريات
بإفراط . وليس فى النساء من عيب مثل قرقشة السكر . ايها
الجنس القارض ! إن الأسنان الصغيرة الجميلة تعبد هذا
السكر ، والسكر نوع من الملح ، والأملاح كلها مجففة .
والسكر اشد تجفيفا ، ويمتص من العروق الدماء ، فيتخثر
الدم ، ثم يتصلب . ويدب السل إلى الرئتين ، ويتلوه الموت .
ولهذا يقترن مرض السكر بالسل . فلا تقرشن السكر لتطول
اعماركن! واتحول الآن إلى الرجال: قوموا ايها السادة بغارات،
وليسلب كل منكم حبيبة الآخر بلا ندم ! فالحب لا يعرف
الصداقة . فحيثما توجد فتاة حسناء ، فالعداوة بابها مفتوح .
ولا هدنة هناك ، بل حرب حتى النهاية ! فالمرأة الجميلة دائما
غنيمة حرب . المرأة الجميلة فعل فاضح ! وكل حروب التاريخ
انتهت برقصات . والمرأة من حق الرجل . فروميلوس
ROMULUS خطف السابينيات ، وغليوم خطف
السكسونيات ، وقيصر خطف الرومانيات . والرجل الذى
لا حبيبة له يحلق كالنسر فوق حبيبات سواه . اما انا فالقى
إلى جميع الأرامل المنكودى الحظ كلمة بونابرت لجيش إيطاليا :
« ايها الجنود ! انتم يعوزكم كل شىء ! والعدو عنده كل
شىء ! » .

وتوقف توموليبس عن الكلام ، فقال بلاشفيل :

ــ خذ نفسا يا توموليبس !

وفى الوقت نفسه كان بلاشفيل ــ مستعينا بلستولييه وفامى ــ يتغنى بأغنية شائعة بين صفوف العمال خالية من المعنى ، وتتجمع الفاظها المتناغمة حيثما اتفق ، كأنمـــا هى وسوسة الرياح ، وخطرات الغلايين المشتعلة ، ومثلها أيضا تتبخر فى الهواء . فكان ذلك الهراء هو تعليقهم على خطبة توموليبس . ولكن ذلك لم يوقف توموليبس عن تدفقـــه فى الارتجال الخطابى ، بل انتهز الفرصة كى يفرغ قدحه ثم يملأه، وشرع يتكلم من جديد :

ــ فلتسقط الحكمة ! انسوا ما قلته لكم ! وها انا اشرب نخب الخفة والطيش ! فلنكن جميعا طائشين ! ولنكمل محاضرة القانون بجنون الطعام ! وليكن قانون جستنيان هو الذكر ، ولتكن المعدة هى الأنثى ! ولنستمتع بالبهجة حتى الأعماق ! إن العالم الماسة كبيرة ، وانا سعيد . والعصـــافير كما اراها مدهشة ! وكل شىء جميل ، والعيد فى كل مكان ! وروحى ترفرف وتحلق فوق الغابات العذراء وفوق السفانا ! كل شىء جميل ! وها هو الذباب يطن فى شعاع الشمس . قبلينى يا فانتين !

وأخطأ ، فقبل فافوريت !

الفصل الثامن

مقتل حصان

وصاحت زيفين :

ــ الطعـــام عند ايدون EDON افضل مما عنـــد بمبردا .

فقال بلاشفيل :

ــ وأنا افضل بمبردا على ايدون . لأنه أكثر رفاهة وفخامة ، والترف هنا آسيوى . انظرى القاعة السفلى ! ان على جدرانها مرايا .

فقال فافوريت :

ــ ولكنى اشد اهتماما بما يوجد فى طبقى !

ولكن بلاشفيل الح قائلا :

ــ انظرى إلى السكاكين . مقابضها عند بمبردا من الفضة ، أما عند ايدون فمقابضها من العظم . والفضة اقيم من العظم .

فقال توموليبس :

ــ إلا عند من لهم ذقون من الفضة .

وكان فى تلك اللحظة يرنو إلى قبة الأنفـــاليد ، التى تشاهد من نوافذ بمبردا . وساد صمت ، وصاح فامى :

— يا تومولييس . منذ قليل نشبت مناقشة بينى وبين لستوليه .

فقال تومولييس :

— المناقشة حسنة . ولكن المشاحنة احسن !

— كنا نتناقش فى الفلسفة .

— ليكن !

— أيهما تفضل : ديكرت ام اسبينوزا ؟

وشرب تومولييس قدحه وقال :

— الذى يهمنى هو الحياة . والحياة لا تنتهى على الارض ، ما دمنا نستطيع التخريف . وانا اقدم الاجلال إلى الآلهة الخالدة . والإنسان يكذب ، ولكنه يضحك . ويثبت ولكنه يشك . وغير المتوقع يخرج من جوف القياس . وهذا جميل . ولم يزل فى الدنيا اناس يعرفون كيف يفتحون بكل مرح وكيف يغلقون صندوق المفاجئات التى تخبئها المفارقة . وهذا الذى تشربنه الآن ايتها السيدات وانتن هادئات البال وادعات هو نبيذ ماديرا ، الذى تنبت كرومه وتعصر على الجبال التى ترتفع عن سطح البحر بمقدار ١١٧ قامة ! فخذن حذركن وانتن تشربنه ! فان هذا الارتفاع يدير الرءوس ! والمسيو بمبردا الكريم البارع يقدم لكن هذه القامات المائة وسبع عشرة مقابل اربع فرنكات وخمسين صلديا .

فقاطعه فامى من جديد :

— يا تومولييس ! آراؤك قانون . فاى هذين المؤلفين هو المفضل لديك .

فاندفع تومولييس فى حديث طويل مستفيض عن انواع الخمور وطرق صنعها عند قدماء الإغريق وقدماء المصريين ! ومن الصعب كف تومولييس عن الاسترسال فى الكلام متى اندفع فيه . وما كان ليتوقف لولا أن حصانا سقط على الأرض فوق رصيف السين امام النافذة فى تلك اللحظة . وكان هذا الحصان فرسا تجر عربة نقل ثقيلة . وأمام بمبردا ارهقها العبء فأبت ان تتحرك . وتجمع الناس . وما كاد الحوذى الفظ يثور كأنما لحقته إهانة أمام الجمع المحتشد ويسب الفرس وينهال عليها بالسوط حتى خرت الدابة على الأرض ولم تنهض . والتفت أصحاب تومولييس إلى هذا المشهد الحزين ، وتنهدت فانتين وقالت :

— يا للحصان المسكين !

وصاحت داليا :

— ها هى فانتين شرعت ترثى لحال الخيول ! وهل يكترث احد لمثل هذه الدابة ؟

وفى هذه اللحظة عقدت فافوريت ذراعيها فوق صدرها ومالت براسها للخلف ونظرت إلى تومولييس بإمعان وقالت له:

— والآن ! ماذا عن المفاجأة ؟

فأجابها تومولييس :

— بالضبط ! حان الوقت ! ايها السادة ! لقد حانت ساعة المفاجأة لهذه السيدات. انتظرننا لحظة ايتها السيدات.

وقال بلاشفيل :

— المفاجأة تبدأ بقبلة !



وكان هذا الحصان فرسا تجر عربة نقل ثقيلة .
وأمام بمبردا أرهقها العبء فأبت أن تتحرك ..

فقال تومولييس :

ــ على الجبين !

وفعلا طبع كل منهم قبلة على جبين عشيقته ، ثم اتجه الشبان الأربعة فى صف واحد متلاحق إلى الباب ، وقد وضع كل منهم سبابته فوق فمه .

وصفقت فافوريت بيديها طربا لخروجهم وقالت :

ــ هذا شيء مسل وممتع ، منذ الآن !

وتمتمت فانتين :

ــ لا تطيلوا الغياب . فنحن فى انتظاركم !

الفصل التاسع

ختام مرح ليوم مرح

وما إن بقيت الفتيات الأربع وحدهن ، حتى اتكأت كل اثنتين منهن على حافة إحدى النافذتين ، ورحن يثرثرن معـا ويتناقلن الحديث من بروز نافذة إلى بروز النافذة الأخرى .

ورأين الشبان يخرجون من حـانة بمبردا متشـابكى الأذرع ، والتفتوا إلى الوراء ولوحوا لهن ضاحكين ، ثم اختفوا وسط زحام يوم الأحد الذى يغمر كل أسبوع الشانزيليزيه . وصاحت فانتين :

ـ لا تطيلوا الغياب !

وقالت زيفين :

ـ ترى ماذا سيحضرون لنا ؟

فقالت داليا :

ـ لا بد انه سيكون شيئا جميلا .

وقالت فافوريت :

ـ اما انا فأريد ان يكون ما يحضرونه مصـنوعا من الذهب .

ثم شغلن بالحركة على شاطىء الماء الذى كان يبدو لهن من بين اغصان الأشجار الكبيرة ، ووجـدن فى ذلك تسـلية

كبيرة . فقد كانت هذه ساعة رحيل عربات البريد وعربات المسافرين . فكل سفريات الجنوب والغرب تقريبا كانت تمر فى ذلك الحين بالشانزيليزيه ، ومعظم هـذه العـربات تمر بالأرصفة المجاورة للسين وتخرج من ممر باسى . وما بين دقيقة وأخرى كانت مركبة ضخمة مطلية باللونين الأصـفر والأسود تمر مثقلة بالركاب والحقائب ، وتطل من نوافذها عشرات الرءوس ، وتعلو لها ضجة كبيرة ، وتشق طريقهـا تحت النافذتين بين زحام الناس ، ومن عجلاتها يتطاير الشرر وسط سحب الغبار الذى تثيره العجلات وسنابك الخيل . فكانت هذه الجلبة الزائلة والمناظر المتغيرة تفرح الفتيـات وتثير مرحهن وتسليهن .

وحدث ذات مرة ان وقفت إحدى هـذه العربات التى تتضح بصعوبة من بين اشجار الدردار لحظة تحت انظارهن . ثم انطلقت بسرعة . فادهش ذلك فانتين وقالت :

ـ هذا غريب ! كنت اظن عربات السفر لا تتوقف فى طريقها ابدا .

فهزت فافوريت كتفيها وقالت :

ـ فانتين هذه امرها غريب ! فهى تندهش من ابسط الأشياء . لنفرض انى مسافر ، وقلت لسـائق الحـافلة : « سأسبقك وتقف لأخذى من فوق الرصيف اثناء مرورك » . وتمر الحافلة وترانى واقفة فتقف وتأخذنى . هذا شىء يحدث كل يوم . انت لا تعرفين الحياة يا عزيزتى !

ومضى وقت على هـذه الوتيرة . وفجاة ندت عن فافوريت حركة كحركة من يصحو من نومه وقالت :

— وبعد ؟ اين المفاجاة التى وعدونا بها ؟

فقالت داليا :

— أى والله . على فكرة ! اين المفاجاة الشهيرة ؟

وقالت فانتين :

— لقد أطالوا الغياب !

وبينما كانت فانتين تتم تنهدها ، دخل الساقى الذى كان قد قدم الغداء ، وقد أمسك فى يده شيئا ما يشبه الخطاب . فسألته فافوريت :

— ما هــذا ؟

فأجابها الساقى :

— هذه ورقة تركها أولئك السادة للسيدات .

— ولمــاذا لم تحضرها على الفور ؟

فقال الساقى :

— لأن هؤلاء السادة طلبوا بإلحاح عدم تسليمها إلا بعد مضى ساعة !

فاختطفت فافوريت الورقة من يدى الساقى . فاذا بها فعلا رسالة ، وصاحت :

— عجبا ! ليس بها عنوان ، ولكن هذا هو المكتوب على المظروف :

هذه هى المفاجاة !

وبسرعة فضت المظروف وقرأت (فهى الوحيدة التى تعرف القراءة) :

يا حبيباتنا :

« اعلمن أن لنا أهــلا ووالدين . وإن كنتن لا تعرفن

الكثير عن معنى الوالدين . فهما ما يسمى فى القانون المدنى الصريح الآباء والأمهات. وهؤلاء الأشخاص يئنون ويتوجعون. هؤلاء المسنون ينادوننا كى نعود إليهم ، ويسموننا الأبناء الضالين . ويتمنون عودتنا ، ويعدوننا عند عودتنا بأن يذبحوا لنا العجول المسمنة . وعلينا طاعتهم لأننا أبناء بررة . ففى اللحظة التى تطالعن فيها هذه السطور تكون خمسة جياد قوية تجر عربتنا متجهة بنا إلى آبائنا وأمهاتنا فنحن إذن قد قررنا الرحيل . بل نحن فى هذه اللحظة قد رحلنا . فحافلة تولوز تبعدنا الآن عن شفا الهاوية . وهذه الهاوية هى أنتن ! يافاتناتنا الصغيرات ! وبذلك نعود إلى أحضان المجتمع والواجب والنظام ، بسرعة معدلها ثلاثة فراسخ فى الساعة. فمن مصلحة الوطن ان نترك المجون ونصبح — مثل الناس جميعا — محافظين ، وأرباب عائلات ، ومستشارين محليين وموظفين عموميين . فعليكن ان تحترمن سلوكنا هذا ، لأننا انكرنا ذواتنا وضحينا بلذاتنا فى سبيل الواجب القومى . وابكيننا قليلا ، ثم استبدلن بنا غيرنا بسرعة . وإذا مزق قلوبكن هذا الخطاب ، مزقنه !

« لقد اسعدتننا قرابة عامين ، ونحن أيضا أسعدناكن. فلا تحقدن علينا .

التوقيع

بلاشفيل

فامى

لستوليبه

فيلكس تولومييس

حاشية : ثمن الفداء تم تسديده » .

ومــا إن فرغت فافوريت من التــلاوة ، حتى تبــادلت الفتيات الأربع النظرات . وكانت فافوريت أول من قطعت هذا الصمت ، صائحة :

ــ آه ! انها على كل حال ملهاة حسنة !

وقالت زيفين :

ــ هذا شيء مضحك للغاية !

وعادت فافوريت تقول :

ــ لا بد ان بلاشفيل هو صاحب هذه الفكرة . وهــذا يجعلنى اهيم به حبا . فما إن رحل حتى احببتــه ! وهذه هى الحكاية !

فقالت داليا :

ــ لا . هذه فكرة تومولييس . فذلك واضح تماما .

فقالت فافوريت :

ــ فى هذه الحالة الموت لبلاشفيل ، وليعش تولومييس!

وهتفت داليا وزيفين :

ــ عاش تولومييس !

ثم انفجرت الثــلاثة ضــاحكات . وضــحكت فانتين كالأخريات . .

وبعد ساعة ، عندما عادت إلى حجرتها ، بكت . فقد كان هذا حبها الأول ، كما قلنا آنفا ، وكانت قد منحت نفسها لتولومييس كما لو كان زوجا . وكان للفتاة المسكينة طفلة .

الكتاب الرابع

الثقة تفضى إلى التســـــليم

الفصل الأول

أم تلتقى بأم أخــرى

كان فى الربع الاول من القرن التاسع عشر ، فى «فرمى» FARMEIL بالقــرب من باريس مطعم حقير لم يعــد له فى الوقت الحاضر وجود، وكان يدير هذا المطعم الحقير زوجان هم آل تردييــه THENARDIER . وكان هذا المطعم الحقير يطل على حارة بولانجيه (الخباز) BOULANGER . وكانت تعلو بابه لافتة مثبتة بمسامير فى الحائط . وفوق هذه اللافتة — وهى فى الحقيقة لوح من الخشب — رسم يشبه رجلا يحمل على ظهره رجلا آخر ، وهذا الرجل المحمول على كتفيه علامات رتبة الجنرال المذهبة التى تشبه الفرشــاة ، ترصعها نجوم فضية ، وبقع حمراء ترمز إلى الدم ، اما سائر اللوحة فهو دخان لعله يمثل موقعة حربية . وتحت هــذه اللوحة عبارة بالخط الكبير : إلى جاويش (رقيب) ووترلو .

وما من شىء يثير الدهشة فى وقوف عربة ذات صندوق او عربة نقل على باب مطعم . ولكن لا شك فى ان العربة ، او على الأصح البقية الباقية من العــربة التى كانت تســد الشارع أمام هذا المطعم الحقير المسمى « جاويش ووترلو » ذات مساء فى ربيع ســنة ١٨١٨ كانت جــديرة بلفت نظر اى رسام يمر من هناك .

فقد كانت هذه العربة او حطامها عبارة عن مقدمة إحدى تلك العربات التى تستخدم للنقل الثقيل فى اقاليم الغابات ، وتستخدم فى نقل جذوع الأشجار . ولهذه المقدمة مقعد محطم، وعجلتان هائلتان ، ويكاد من يراها يحسبها بالأرجح عــربة مدفع جبار ، وقد غطى كل جزء فيها بالوحل الجاف الذى صار لونه ضاربا إلى الصفرة . ومن فوق المقعد المحطم تتــدلى سلسلة هائلة من الحديد جديرة ان تكون قيــدا لجوليــات الجبار . وكان هومير خليقا ان يقيد بها بوليفيم POLYPHEME اما شكسبير فكان خليقا ان يقيد بها كليبان CALIBAN .

وكان وسط السلسلة الهائلة المزدوجة يتدلى من المقعد بالقرب من الأرض ، وعلى هذه الثنية ، كانما هى ارجوحة جلست فى ذلك المساء بنتان صغيرتان ، إحداهما عمرها نحو العامين والنصف ، وعمر الأخرى سنة ونصف ، وقد رقدت الصغرى بين ذراعى الكبرى . وهناك منديل كبير يربطهما معا فوق السلسلة بحيث لا يمكن أن تسقطا ...

وكانت الطفلتان نظيفتى الملبس فى عناية واضحة ، فكأنهما وردتان ، وعيونهما لامعة ، وخدودهما ناضرة ضاحكة، ووجهاهما عموما فتنة للناظرين . وكان شــعر إحــداهما كستنائيا ، وشعر الأخرى بنيا . وكانت بالقــرب من المكان ايكة تنفح عبيرها وينتشى به المارة فيحسبونه يفوح من هاتين الطفلتين اليانعتين النظيفتين وسط الركام والأقذار . وكان بطن ابنة العام والنصف عاريا للأنظار فى براءة الطفولة التى لم تتعلم بعد معنى الحياء . وكان الاثنتين من تحت هذه العربة

القبيحة القذرة الوحشية جالستان فى فوهة مغارة موحشة رهيبة . وعلى قيد خطوات منهما كانت أمهما جالسة على عتبة المطعم . وهى تؤرجح الطفلتين بهز السلسلة ، عن طريق خيط غليظ ربطته بها ، وهى ترقبهما بعينين فيهما شراسة المرأة السوقية ممتزجة بحنان الأمومة . ومع كل اهتزازة كانت حلقات السلسلة الضخمة الصدئة يصدر عنها صوت صرير حاد أشبه بصرخة غضب ، فكانت الطفلتان تطربان له جدا . والشمس الغاربة تشارك فى هذا المرح . ولم يكن شىء أفتن للألباب من هذه الصدفة التى جعلت من سلسلة من اغلال العمالقة الاسطوريين ارجوحة طفلتين فى جمال الملائكة .

وكانت الام وهى تؤرجح الصغيرتين تغنى لهما بصوت نشاز اغنية كانت شائعة فى ذلك الحين .

« لا بد من هذا . قال المقاتل .. » :

وكانت اغنيتها وتأمل الطفلتين يمنعانها من سماع او رؤية ما يدور فى الشارع . ولكن شخصا كان قد اقترب منها وهى تبدأ المقطع الأول من اغنيتها ، وعلى حين غرة منها سمعت صوتا قريبا جدا من اذنها يقول :

— ما اجمل طفلتيك يا سيدتى !

فأجابتها الام متممة مطلع الأغنية :

« للحسناء الرقيقة الحنون ايموجين IMOGINE » .

ثم استدارت نحوها . فاذا أمامها امراة ، على بعد

خطوات منها . وكان مع هذه المراة ايضا طفلة تحملها بين ذراعيها . وتحمل ايضا حقيبة تبدو ثقيلة جدا .

وكانت طفلة هذه المراة من ابدع الكائنات التى يمكن ان تقع عليها العين. كانت طفلة يتراوح عمرها بين سنتين وثلاث سنوات . وكان من الممكن ان تلعب مع الطفلتين الأخريين وتباريهما فى الحسن . وثيابها من النسيج الرقيق الفاخر ، وعلى راسها قلنسوة مزينة بشرائط . وذيل ثوبها المرفوع يكشف عن فخذين بيضاوين لحيمين. وبشرتها وردية تنبىء عن تمام الصحة والعافية . وخداها تفاحتان تغريان المرء بالقضم! ولا يمكن الحكم على عينيها إلا بانهما حتما واسعتان جدا واهدابهما رائعة . فقد كانت نائمة .

كانت الطفلة نائمة نوم الطمانينة المطلقة التى تعرفها هذه السن . فذراعا الأم مهاد الأمان والحنان ، وفى احضان الأم ينام الأطفال بعمق .

اما الأم فكان مظهرها مختلفا عن مظهر الطفلة . وكان مرآها ينبىء عن الفقر والحزن . فهى مرتدية بزة عاملة فى المدينة تصبو إلى أن ترتد فلاحة . وكانت شابة . اتراها كانت جميلة ؟ ربما ! ولكنها فى هذه البزة لم يكن جمالها باديا للعيان. وشعرها — الذى ظهرت منه خصلة شقراء — يبدو انه غزير جدا ، ولكنه كان متواريا بصرامة تحت طاقية قبيحة الشكل ، ضيقة ، ومعقودة تحت ذقنها . والضحك يبرز جمال الأسنان إن كانت هذه الأسنان جميلة ، ولكن فمها كان مطبقا ، ولا يفتر عن ضحك او ابتسام. وعيناها يبدو انهما لم يرقأ لهما دمع منذ

زمن طويل جدا . وكانت شاحبة البشرة ، يبدو عليها الاعياء ، بل كانت مريضة بعض الشيء . تنظر إلى ابنتها النائمة فى احضانها تلك النظرة الخاصة التى ترنو بها الأم التى اطعمت طفلها . وكان منديل أزرق كبير كالذى يتمخط فيه المرضى قد طوى وتدلى لكى يحجب قدها فلا تبدو قسماته . ويداها مسفوعتان وتعلوهما آثار تدل على الافراط فى استخدام الابرة ، وثوبها عبارة عن سترة بنية اللون من الصوف الخشن ، وتحتها ثوب من القطن ، وفى قدميها حذاء ضخم غليظ . وكانت هذه هى فانتين !

اجل هذه فانتين ، وإن كان من العسير التعرف عليها . ولكنك إذا ما تفحصتها عن كثب وجدت آثار جمالها ، ولكن تجعيدة حزينة ، كانما هى شروع فى سخرية ، كانت تغضن خدها الأيمن . اما زينتها التى كانت مزيجا من الموسلين والعمامات الأنيقة والقبعات وقد نسقت كلها لتنبىء عن المرح والشباب ، وكانما تنبعث من حركاتها الرشيقة موسيقى للعيون ، ومن اعطافها واردانها يفوح عبير الشباب كانه الليلك .. كل هذا تبخر وتلاشى ، كما يتلاشى الصقيع اللامع الذى يحسبه المرء عند بزوغ النهار الماسات ، فاذا به متى اشتدت الحرارة يذوب ، ويبقى الغصن من تحته عاريا اسود اجرد .

وكانت قد مرت شهور عشرة منذ حدوث تلك « الملهاة المتقنة الصنع » .

فما الذى جرى فى هذه الشهور العشرة ؟ هذا شىء نستطيع ان نحدسه .

بعد الهجر حلت الضائقة . وغابت تماما عن انظار فانتين فى الحال فافوريت وزيفين وداليا . فانقطاع الصلة مع الرجال ، قد قطع أيضا الصلة بين النساء . بحيث كن يدهشن لو قيل لهن بعد خمسة عشر يوما إنهن كن صديقات . فالصداقة بينهن لم يعد لوجودها سبب ، وقد استنفدت غرضها . وبقيت فانتين وحيدة ، وبعد رحيل والد طفلتها — ومثل هذه القطيعة لا يمكن للأسف الشديد أن تتجدد بعدها العلاقة ! — الفت نفسها معزولة عن الناس تماما ، وقد قلت لديها عادة العمل ، وحلت محلها الرغبة فى المتعة . وقد استدرجتها علاقتها بتومولييس إلى ازدراء الحرفة الحقيرة التى كانت تعرفها . ولم يعد لها أى مورد . وكانت لا تكاد تعرف القراءة . اما الكتابة فلا معرفة لها بها اصلا . وكل ما هنالك انهم علموها فى طفولتها كيف توقع باسمها . وذهبت إلى كاتب عمومى وجعلته يسطر لها رسالة إلى تومولييس ، ثم أعقبتها برسالة اخرى ، ثم بثالثة . ولم يتكرم تومولييس بالرد على اى منها . وذات يوم سمعت فانتين فضوليات يقلن وهن ينظرن إلى ابنتها :

— وهل ياخذ احد مثيلات هذه الطفلة ماخذ الجد ؟ انهن لا يقابلن إلا بهز الأكتاف !

وعندئذ تذكرت تومولييس وكيف كان يهز كتفيه استهانة بابنته ، ولم يكن ياخذها ابدا ماخذ الجد . وامتلأ قلبها بغضا وضغينة على هذا الرجل . ولكن ماذا عساها تصنع ؟ انها لم تعد تعرف إلى من تتوجه . لقد ارتكبت خطا ، ولكن اعماق طبيعتها كانت كلها حياء وفضيلة . وشعرت شعورا غامضا

بانها على اعتاب التردى فى الفاقة ، بل وما هو اسوا من الفاقة ، وكان لا بد لها من الشجاعة ، وقد تصلبت . وراودتها فكرة العودة إلى مسقط راسها فى بلدة « م » . فلعل أحدا هنـــاك يتعرف عليها او يتذكرها ويتيح لها عملا . هذا ممكن . ولكن لا بد لها قبل هذا من إخفاء خطيئتها . وادركت ان ذلك معناه ان تتكبد آلام فراق ثان اقسى على نفسها من الفراق الأول . وانقبض قلبها ، ولكنها اتخذت قرارها . فقد كان لدى فانتين — كما سنرى — ما يمكن ان نسميه شجاعة الحياة . وكانت من قبل قد تخلت عن زخارف زينتها وابهتها ، ولبست القماش الخشن ، واعادت تفصيل كل ما كان لديها من ملابس حريرية وبهارج واشرطة ومخرمات وصنعت منها ثيابا لابنتهـــا التى كانت البهجة والزهو الوحيدين الباقيان لها . كانت تقدسها. وباعت كل ما كان لديها وحصلت من ذلك على مائتى فرنك . دفعت منها ديونها الصغيرة ، ولم يتبق لها إلا حوالى ثمانين فرنكا . وفى سن الثانية والعشرين ، ذات صباح جميل يوم من ايام الربيع غادرت باريس ، حاملة طفلتها على ظهرها . ولو رآهما احد وهما تمران به لأخذته بهما الشفقة . فهذه المراة ليس لها فى الدنيا إلا هذه الطفلة ، وهذه الطفلة ليس لها فى الدنيا إلا هـذه الأم . وارضعت فانتين ابنتهـــا ، فاتعب ذلك صدرها ، وجعلت تسعل قليلا .

ولن تتاح لنا بعد الآن فرصـــة للحديث عن المســـيو توموليبس ، وبحسبنا ان نقول إنه بعد هذا التاريخ بعشرين عاما — تحت حكم لوى فيليب LOUIS-PHILIPPE صار موثقا كبيرا فى الأقاليم، ذا نفوذ وثروة، وناخبا حكيما ومحلفا فى

المحكمة بالغ القسوة ، وإن كان قد ظل اخا ملذات وشهوات .

وحوالى منتصف النهار ، بعد ان كانت تبحث عن الراحة قد استقلت بين وقت وآخر عربات عامة كانت يومئذ تستخدم فى ارباض باريس لقاء أربع صولديات للفرسخ الواحد ،الفت فانتين نفسها فى مونفرمى MONTFERMEIL فى حارة بولنجيه (الخباز) .

وفيما هى مارة امام مطعم ونزل تترديبه ، بهرها منظـــر الطفلتين المتأرجحتين على تلك السلسلة ، ووقفت تنظر إلى هذا المشهد البهيج . فحتى للبؤساء توجد مشاهد ساحرة . وكانت هاتان الطفلتان مشهدا ساحرا لهذه الأم .

وراحت ترمقهما وقد تحركت مشاعرها . فرؤية الملائكة إيذان بوجود الفردوس . وخالت انها رات مكتوبا فوق هـــذا النزل عبارة : «هنا» التى خطتها يد العناية الإلهية . فلا شك عندها فى ان هاتين الصغيرتين كانتا سعيدتين . وراحت تنظر إليهما باعجاب ، وقد جاشت نفسها بالحنـــان ، ولما رات الأم تلتقط انفاسها فيما بين بيتين من الأغنية لم تتمالك نفسها من ان تقول لها الكلمة التى ذكرناها آنفا :

— ما اجمل طفلتيك هاتين يا سيدتى !

واشـــد الناس شراســـة تلين عريكتهم إذا ما داعبت ولاطفت صغارهم .

ورفعت الأم راسها وشكرتها ، واجلست عابرة السبيل



وراحت ترمقهما وقد تحركت مشاعرها .
فرؤية الملائكة ايذان بوجود الفردوس ..

هذه على دكة الباب ، اما هى فكانت جالسة فوق العتبة . وتجاذبت المراتان الحديث .

قالت أم الطفلتين :

ـ اسمى مدام تنردييه . وانا وزوجى ندير هذا النزل . ثم واصلت أغنيتها ، فقالت من بين اسنانها :

« لا بد من هذا ، فانا فارس »

« ولذا فانى راحلٌ إلى فلسطين »

وكانت مدام تنردييه هذه امراة صهباء ، طويلة ، لحيمة ، عريضة العظام . فهى نموذج امراة الجندى . ومن العجيب انها كانت مدمنة قراءة اقاصيص شعبية . وهذا نوع طبيعى من القراءة لصاحبة مطعم حقير ، يترك فى نفسها انطباعاته . وكانت ما تزال شابة ، لم تكد تبلغ الثلاثين . ولو ان هذه المراة المقعية انتصبت واقفة ، لكانت قامتها العملاقة وقوتها البادية التى تشبه قامة المصارعين المتجولين ، خليقة ان تروع مسافرتنا المسكينة وتقلق طمانينتها وتسلبها الثقة ، فتتبخر الأحداث التى سوف نرويها ها هنا . ولكن القدر تغير اتجاهه بحكم الصدفة التى شاءت لهذه المراة ان تكون الآن جالسة لا واقفة .

وروت المسافرة التعسة قصتها ، بشىء من التحوير .

قالت انها كانت عاملة ، وإن زوجها مات عنها ، وإنها لم تجد لها عملا فى باريس ، ولذا فهى ذاهبة للبحث عن عمل فى مكان آخر ، فى إقليمها الأصلى . وقالت ايضا انها غادرت باريس هذا الصباح ، سيرا على الاقدام ، ولأنها تحمل طفلتها

شعرت بالتعب ، وقـابلت العربــة الذاهبــة إلى فلومبل VILLEMOMBLE فركبتها وجاءت من فيلومبل إلى مونفرمى سيرا على قدميها ، وأن الصغيرة مشت قليـلا ، ولكن ليس لمسافة طويلة ، فهى صغيرة جدا ، ولذا اضطرت لحملهـا ، وها هى الجوهرة الجميلة نائمة .

ولما قالت هـذه الكلمة طبعت على وجه الصغيرة قبلة حارة ايقظتها . ففتحت الطفلة عينيها ، فاذا عينان واسعتان زرقاوان مثل عينى الأم . ولكن إلام كانت تنظر ؟ لا شىء ، وكل شىء ! بتلك النظرة الجادة ، التى قد تكون صـارمة أحيانا ، التى يتميز بها الأطفال الصغار ، وهى سر من أسرار براءتهم المضـيئة امام غسق فضـائلنا . حتى لكأن هؤلاء الأطفـال الصغار يشعرون بأنهم ملائكة أطهار وبأننا بشر . . ثم أخذت الطفلة تضحك ، ومع ان امها حاولت استبقاءها إلا انها نزلت إلى الأرض مدفوعة بطاقة الكائن الصغير الجارفة التى ترغب فى الجرى . وفجاة لمحت الطفلتين على ارجوحتهما ، فوقفت مبهوتة ، واخرجت لسانها . وهى عندها علامة إعجاب .

واسرعت الأم تنردييه تفك رباط طفلتيها ، وانزلتهما من الأرجوحة وقالت :

— العبن أنتن الثلاثة .

وفى هذه المرحلة من العمر يحدث التقارب على الفور ، فبعد دقيقة واحدة كانت الطفلتان تنردييه تلعبـان مع القادمة الجديدة ، وتتسـابق ثلاثتهن فى إحـداث ثقـوب فى الأرض باصابعهن الرخصة فى استمتاع عظيم . وكانت هـذه القادمة

الجديدة عظيمة المرح ، وطيبة الأم متجلية فى بهجة الطفلة . ووجدت على الأرض قطعـة صغيرة من الخشب فاتخذتهـا جاروفا حفرت به حفرة تتسع لذبابة !

وواصلت المراتان تجاذب الحديث :

— ما اسم صغيرتك ؟

— كوزيت COSETTE .

وكان هذا الاسم تحويرا للتدليل لاسمها الأصـلى وهو إيفرازى EUPHRASIE ولكن ذلك الاسم لم يكن يروق الأم ، لذا اطلقت عليها اسم كوزيت ، بحذاقة ولباقة بنات الشعب وذوقهن حين يحـولن اسم جوزيفـا JOSEFA إلى ببيتـا PEPITA وفرنسواز إلى سييت SILLETTE بل انى اعرف جدة حورت اسم حفيدهـا من تيودور THEODORE بقدرة قادر إلى نيون GNON !

— وكم عمرها ؟

— فى عامها الثالث .

— مثل عمر ابنتى الكبرى .

وفى هذه الأثناء كانت الصغيرات الثلاث متجمعـات فى اوضاع تدل على القلق العميق والغبطة فى الوقت نفسه ، فقد حدث شىء خارق : برزت من جوف الأرض دودة غليظـة من دود الطين ، فخفن ، ولكنهن كن فى حالة نشوة فى الوقت نفسه .

وتلامست جباههن المشرقـة ، لكأنهن ثلاثة رءوس من حولها هالة . وصاحت الأم تنردييه حين رات هذا المنظر :

— الأطفال سرعان ما يتعارفون ! ها هن يكاد يقسم من يراهن انهن ثلاث أخوات !

فكانت هذه الكلمة الشرارة التى لعل الأم الأخرى كانت تنتظرها ، فتناولت يد مدام تنردييه ، وحدقت فى وجهها بنظرة متوسلة وقالت :

— هل لك أن تحتفظى لى بابنتى ؟

فندت عن مدام تنردييه حركة تنبىء عن الدهشة من غير ان تعنى قبولا او رفضا .

وواصلت ام كوزيت كلامها :

— المسألة كما ترين انى لا استطيع ان آخذ معى ابنتى إلى بلدى . فالعمل لا يسمح بهذا . والمرأة التى لديها طفل لا تجد من يلحقها بعمل . والناس غريبو الأطوار فى ذلك الإقليم . والله الكريم العليم هو الذى جعلنى امر الآن امام نزلك هذا . ولما رأيتك وابنتيك بكل هذا الجمال والنظافة والنعمة ، اضطربت نفسى . وقلت فى سريرتى : ها هى ذى ام طيبة صالحة ! والأمر كما قلت انت : سيكن ثلاث اخوات . ثم اننى لن البث طويلا حتى اعود . فهلا احتفظت لى بابنتى ؟

فقالت مدام تنردييه :

— سنرى ... ونتدبر الأمر ، إن كان ممكنا .

— سأعطيك ستة فرنكات فى الشهر .

وعندئذ صاح صوت رجل من داخل المطعم الحقير :

— لا اقل من سبعة فرنكات . وستة اشهر تدفع مقدما .

وقالت مدام تنردييه :

— ستة فى سبعة تساوى اثنين واربعين .

فقالت الأم :

— سأدفعها !

فقال صوت الرجل :

— وخمسة عشر فرنكا للمصروفات والنفقات المبدئية .

وقالت زوجته :

— المجموع سبعة وخمسون فرنكا .

وراحت تدندن من جديد :

« شىء لابد منه . قال المحارب .. »

وقالت الأم :

— سأدفعها الآن ، معى ثمانون فرنكا . وسيبقى لى ما يكفينى للذهاب إلى بلدى . وسأذهب سيرا على القدمين.. وهناك سأكسب مالا ، ومتى توفر لى منه شىء عدت لآخذ حبيبتى .

فقال صوت الرجل من الداخل :

— هل للصغيرة ما يكفى من الثياب والحوائج ؟

وقالت مدام تنردييه :

— هذا زوجى .

— طبعا لديها جهاز كامل، هذه اللؤلؤة العزيزة المسكينة. لقد ادركت منذ البداية انه زوجك . وجهازها هذا من احسن ما يكون . جهاز غير معقول ، كل شىء فيه بالدستة ، واثوابها من الحرير مثل بنات الطبقة الراقية . وجهازها هنا فى حقيبتى.

فقال صوت الرجل :

— يجب تسليمه !

فقالت الأم :

ــ طبعـــا سأسلمه ! أتظنان أنى يمكن أن أترك ابنتى عارية ؟

فظهر وجه رب المطعم عند الباب ، وقال :

ــ هذا حسن !

وتمت الصفقة . وقضت الأم الليلة فى النزل ، وسلمت نقودها ، وتركت طفلتها ، وعقدت رباط حقيبتهـــا التى كانت منتفخة بجهاز الصغيرة وصـــارت الآن شبه خاوية ، ورحلت منذ الصباح الباكر ، وفى نيتها أن تعود سريعا . ومثل هـــذا الفراق يتم بسرعة ، ولكنه محفوف دائما بالأسى واليأس .

وقابلت إحدى جارات آل تنردييه تلك الأم وهى راحلة ، وعادت تقول :

ــ لقد رأيت امرأة تبكى فى الشـــارع ، فتمزق لها قلبى .

ولما رحلت والدة كزويت قال الرجل لامرأته :

ــ هذا المبلغ سيفى بالكمبيالة المستحقة غدا وقيمتهـــا ١١٠ فرنكات . فقد كانت تنقصنى خمسون فرنكا . أتدرين أن المحضر كان ســـيحضر غـــدا ؟ لقـــد صـــنعت معجزة أنت والطفلتان ...

فقالت المرأة

ــ من غير قصد ...

الفصل الثانى

صورة تخطيطية لشخصيتين مشبوهتين

لقد كانت الفأرة المقتنصة هزيلة جدا ، ولكن القط ابتهج بحصوله ولو على فأرة هزيلة .

ومن هما الزوجان تنردييه ؟

لنقل الآن عنهما كلمة وجيزة ، ثم نتم الصورة فيما بعد .

فهذان الشخصـــان ينتميـــان إلى تلك الفئة الهجين التى تتكون من أناس أجلاف ارتقوا ومن أناس أذكياء انحدروا . فهى فئة تكاد تكون طبقة تقع فى المنطقة الوسطى بين الطبقة المتوسطة والطبقة الدنيا ، وتجتمع لها مساوىء ورذائل هذه الطبقة وتلك معا ، من غير أن تكون لها شـــهامة العامل أو الصانع ولا أمانه البرجوازى .

كانت طبيعتهما من تلك الطبائع القزمة ، التى إذا اتقدت غرائزها غدت مخلوقات متوحشة مسعورة . ففى تلك المرأة فظاظة وحشـــية ، وفى ذلك الرجل خســـة ونذالة . وكلاهما كانا يجدان لذة فى التوغل فى الشر ، ويحســـبان ذلك ســـبيل التقدم ، ففى الناس أنمـــاط بشرية لا تطيق النـــور ، وتتقهقر دوما نحو دياجير الظلمات ، وينكصـــون على أعقابهم وهم يخالون أنهم ماضون إلى الأمام قدما . ويستخدمون ما يتجمع لهم من الخبرات فى زيادة تشويه نفوسهم ، وصبغ ضمائرهم

بمزيد من السواد . وكان هذا الرجل وكانت هـــذه المرأة من ذلك القبيل من النفوس الممسوخة .

وكان الرجل تنردييه على الخصـــوص محيرا لعلماء الفراسة . ومن الرجـــال من يكفى ان يقع بصرك عليهم لأول وهلة كى تتوجس منهم شرا وتنفر منهم ، لأن المرء يشعر انهم ينضحون بالظلمة من كيانهم كله . فهم مصدر قلق إذا غابوا ، ومصدر خطر إذا حضروا . ففيهم عنصر مجهول . ولا يستطيع المرء ان يضمن ماذا فعلـوا سابقا ولا ما عسـاهم يفعلـون غدا . وما يبدو فى نظراتهم من العتمة يفضـح سرائرهم . ويكفى ان يسمعهم المــرء يقولون كلمة او ان يراهم يومئون بإشارة حتى يحس ان فى اعماقهم اسرارا خفية تكتنف ماضيهم وتحف بمستقبلهم .

وتنردييه هذا كان جنديا فيما مضى، ويقول إنه كان رقيبا (جاويشا) . ولعله خاض معارك حملة سنة ١٨١٥ ، ولعله ايضـا أبـدى فيهـا شـجاعة وبســالة ، فيما يبـدو . وسنرى فيما بعد ماذا كان من أمره فيها ، ولافتة حانته كانت إشارة إلى موقف من مواقفه فى الحرب ، وهو الذى رسمها ، لانه كان يعرف طرفا من كل صنعة ، ولكن بلا إتقان .

وكانت هذه هى الفترة التى شاعت فيها حكاية كلاسيكية عن فتاة كان اسمها كليلى CLELIE ثم صار اسمها لودويسكا LODOISKA ولكنها من اصل نبيل ، إلا انهـا انحدرت إلى مستوى الســوقة رويدا رويدا ، فانحدرت وبعـد ان كانت

الآنسة دى سكيديرى SCUDERY صـارت مـدام بورنون – ملارم BOURNON-MALARM ، ومن مدام دى لافاييت LAFAYETTE صـــــارت مــــدام برتلمى آدو BARTHELAMY-HADOT . وهذه القصـــة الشـــعبية الهبت مشـــاعر البوابات العاشــــقات فى باريس ، بل واجتاحت ضواحيها وارباضها ايضا . وكانت مدام تنردييه من الذكاء بحيث تقرا هذا النوع من الكتب . وكانت غذاء روحها. وفى بحارها اغرقت ما كان لهـــا من عقل ، وقد اضفى هـــذا عليها منذ يفاعتها ، بل وبعد ذلك ايضا بقليل سيما الشرود فى الفكر بالقياس إلى زوجها الذى كان وغدا فيـه لؤم ومكر ، ووبشا وصل فى تعليمه إلى المرحلة الأولية ، فهو فظ غليظ وداهية خبيث فى الوقت نفسه، وفيه مع هذا نوع من العاطفية المبتذلة نماها بقراءة مبتذلة ، وفيما يتصل بكل امور الجنس – كما كان يقول – كان مفوارا فيه بهيمية سافرة غير مشوبة. وكانت زوجته أصغر منه بنحو اثنى عشر عاما أو خمسة عشر عاما وعندما بدات بوادر الشيب تدب إلى شعرها ، تقلصت شاعريتها أو رومانسيتها السوقية ، وزادت نزعة الشر لديها وقد تذوقت من قبل تلك الأقاصيص البلهاء . وإن قراءاتها المبتذلة لا تترك قارئها بلا عقاب ، لأنها تشوه نفسيته . ومن آثار هذه القراءات ما اختارته لبنتيها من الأسماء . فالكبرى اسمها إيونين EPONINE والصغرى المسكينة كان لا بد لهـــا ان تحمل اسم جلنار GULNARE ، ولولا لطف القدر لأوحت إلى امها قراءة قصة لديكراى – ديمينيل DUCRAY-DUMINIL أن تسميها ازلما AZELMA !

ولكن ليس كل ما يتعلق بأسماء هــذه الفترة مضحكا ، وهى فترة تستحق أن تسمى فترة فوضى أسماء العماد . فإلى جانب التأثير العاطفى الشعبى ، لتلك الأقاصيص المبتذلة ، كان هناك أيضا أعراض الظواهر الاجتماعية . فلا غرابة فى أن نجد اليوم صبيا يرعى الأبقــار أو صبيى كلاف اسمه رتير ARTHUR أو ألفريد ، أو ألفونس. وأن نرى فيكونتا — إن كان قد بقى فيكونتات فى زماننا — اسمه توما أو بيير أو جاك . وهذا خلط يطلق أســماء النبــلاء على أبناء العامة ، ويلصق أسماء الريفيين بأبناء الطبقة العليا . وهــذا كله من تأثير المساواة . فرياح المبادىء الجديدة قد هبت فى هذا المجال كما هبت على كل مكان وكل شىء . ووراء هذا كله لا يوجد إلا سبب واحد عظيم وعميق ، وهذا الســبب هو الثــورة الفرنسية .

الفصل الثالث

القبــرة

لا يكفى ان يكون المرء شريرا كى يزدهر . فالمطعم الحقير كانت حالته سيئة وتجارته خاسرة .

وبفضل السبعة والخمسين فرنكا التى دفعتها المسافرة ، تمكن تيناردييه من تجنب الإفلاس والوفــاء بديونه الممهورة بتوقيعه . ولكن فى الشهر التالى إحتاجوا أيضــا إلى نقود . فحملت المرأة « جهــاز » كوزيت إلى باريس ورهنته فى مكتب الرهون مقابل مبلغ ستين فرنكا . وبمجرد إنفاق هــذا المبلغ كان الزوجان تيناردييه قد اعتادا الا يريا فى البنت الصــغيرة إلا طفلة يحتفظان بها على سبيل الصــدقة ، وعاملاها على هذا الأســاس . ولما لم يعد هناك جهاز ثياب كوزيت ، فقــد البساها الثياب القديمة التى رثت على جســدى طفلتيهما ، فغدت أسمالا بالية . وكان طعــام هــذه الصغيرة من بقايا طعام رواد المطعم ، فهو طعام أفضل قليلا مما ياكله الكلب ، واسوا قليلا مما ياكله القط . وكانت كوزيت تاكل مع الكلب والقط تحت المائدة من صحفة من الخشب مماثلة لصحفتيهما .

اما أمها — فانتين — فانها ، كما سنرى فيمــا بعــد ، استقرت فى مدينة « م » (مسقط رأسها) . وكانت تكتب ، أو بالأصح تستكتب كل شهر الكاتب العمومى رسالة تسأل فيها

عن اخبار طفلتها . وكان آل تنردييه يردون عليها دائما بأن كوزيت فى أحسن حال .

ولما انتهت الشهور الستة أرسلت الأم سبعة فرنكات لنفقات الشهر السابع ، واستمرت على هذا الحال محافظة بدقة على إرسال النقود شهرا وراء شهر . ولم تكد السنة تنقضى حتى قال تنردييه فى تذمر وجشع :

— ما هــذا الذى ترسله إلينا ؟ اتظنهــا نعمة جزيلة فرنكاتها السبعة هذه ؟ ما تظننا نصنع بها ؟

وكتب إلى فانتين يطالب بوجوب زيادة النفقة الشهرية إلى اثنى عشر فرنكا . ولما كانت رسائله قد ادخلت فى روع الأم ان ابنتها بخير حال وأحسن مآل وتعيش سعيدة منعمة ، تحاملت على نفسها وارسلت الفرنكات الاثنى عشر .

وبعض الطبائع لا تستطيع أن تحب من جانب من غير أن تكره من جانب آخر . فالأم تنردييه كانت تحب ابنتيها هى حبا شديدا ، مما جعلها تمقت الطفلة الغريبة . ومن المحزن أن نتصور كيف يمكن لحب الأمومة ـ عند هذه الأم ومثيلاتها ـ ان تكون له جوانب شريرة . فمهما كان الموضع الذى تحتله كوزيت فى بيتها ضئيلا ، فهى تراه منتزعا من ابنتيهـــا ، حتى أنها كانت تحس كأن هذه الصغيرة تنتقص من الهواء الذى تتنفسه ابنتاها . فتلك المرأة — مثل كثيرات على شاكلتها — كانت لديهــا كميـــة محددة من الملاطفات وكميـــة محددة من الضربات واللعنات ، عليهـــا أن تنفقهـــا فى كل يوم . فلو لم

تكن لديها كوزيت المسكينة الغريبـــة لكانت ابنتاها — رغم ما تكنه لهما من حب العبــادة — هما اللتان تنصب عليهمـــا النعمة والنقمة معا . ولكن وجود هذه الغريبة أفادهما لأنها اختصت من دونهما بالضربـــات واللعنات ، فلم يبق للأختين من لدن أمهما إلا الملاطفة والمداعبة والتدليل . فلم تكن كوزيت تأتى بحركة إلا وانصبت على رأســـها عاصفة من العقوبات العنيفة التى لا تستحقها . فالمخلوقة الصغيرة الضعيفة العذبة المعذبة لم تكن تدرى شيئا عن العالم ولا عن الله ، ولكنهـــا تجد نفسها دوما فريسة عقاب أو تقريع أو ســـباب ، وهى ترى إلى جانبها كائنين صغيرين مثلها تعيشان باستمرار فى شعاع من الفجر وردى اللون !

كانت مدام تنردييه شريرة مع كوزيت . وكذلك صارت ابنتاها إيونين وازلما شريرتين ايضا مع كوزيت . فالأطفال فى هذه السن لا يكونون إلا نسخا طبق الأصـــل من الأم ، ولكن فى حجم مصغر ، وهذا كل الفرق .

ومضى عام ، ثم عام آخر . . .

وكان القول يتردد على الألسنة فى القرية :

— آل تنردييه هؤلاء قوم فيهم شهامة وأريحية . فهم ليســـوا اغنياء ، إلا انهم يربون طفلة فقيرة هجرتها امهـــا وتركتها عندهم !

فقد كانوا يحسبون كوزيت صارت نسيا منسيا عنـــد أمها .

ومع هـــذا كان تنردييه قد عـــرف ــ لا ندرى من أى مصدر غامض ــ ان الطفلة ربما كانت غير شرعية ، وأن الأم لهذا السبب لا تستطيع الاعتراف بهـــا . ولذا رفع الإتاوة إلى خمســـة عشر فرنكـــا ، وقال فى تبرير ذلك إن الصغيرة « كبرت » وصارت وجبتها اكبر من ذى قبل ، وهدد بطردها او إرسالها إليها . واخذ يصيح :

ــ يجب الا تثير غضبى ، وإلا القيت إليهـــا بطفلتهـــا كالقنبلة وسط ستار التكتم الذى تحيط به نفسها هنـــاك . لا بد لى من « علاوة » .

واخذت الأم تدفع الخمسة عشر فرنكا كل شهر .

وسنة فى إثر ســـنة كانت البنت تكبر ، وتكبر معهـــا تعاستها ايضا .

وكانت كوزيت فى السنتين الأوليين كبش (أو نعجة) الفداء للشقيقتين فى كل أنواع العـــذاب والجـــوع والمذلة ، ولكنها ما إن كبرت قليلا ، اى ناهزت السنوات الخمس من عمرها ، حتى صارت خادمة المحل .

وقد يقول القارىء إن هذه السن غير معقولة للخدمة . وهذا للأسف صحيح ! ولكن الشـــقاء الاجتماعى يبدأ فى كل سن . الم نقرأ منـــذ قليل عن قضـــية المدعـــو ديمـــولار DUMOLLARD الذى تربى يتيما وصار قاطع طريق ؟ وتقول الوثائق الرسمية إنه منذ الخامسة من عمره « كان وحيدا فى هذا العالم تماما وعمل لكى يعيش ، وسرق » .

كانت كوزيت فى هذه السن الغضـــة تكلف بقضـــاء الحاجات من الخارج ، وكنس الحجرات ، والفناء ، والشارع ، وغسل الأوانى ، بل وحمل بعض الأثقال . وكان الزوجان تنردييه يظنان ان لهما الحق كل الحق فى هـــذا ما دامت الأم لم تزل مقيمة فى « م » ، وبدأت تقصر فى دفع الإتاوة احيانا ، وكان هذا التقصير يطول احيانا بضعة شهور .

ولو ان هـــذه الأم عـــادت إلى مونفرمى بعـــد تلك السنوات الثلاث ، لما تسنى لها ان تعرف ابنتها . فكوزيت التى كانت آية فى الجمال والنضرة عند قدومها إلى هذه الدار ، صارت الآن هزيلة شاحبة . وعليها دائما سيما القلق ، مما جعل الزوجين تنردييه يقولان عنها إنها ماكرة لئيمة !

وكان الجور قد جعلها شكســـة ، وكانت التعاســـة والمسغبة قد جعلتاها قبيحة . فلم يبق لها من آيات جمالها السابق إلا عيناها الجميلتان ، اللتان صـــارتا مؤلمتين ، لأن اتساعهما بهذه الصورة يتيح للناظر إليهما ان يطالع فيهما كمية اكبر من الحزن . . .

وكان شيئا يدعو للأسى ويثير النفس أن ترى فى الشتاء هذه الطفلة المسكينة ، التى لم تتم بعد عامهـــا السادس ، ترتجف تحت اســـمالها العتيقة البالية من التيل الحـــافل بالثقوب ، وهى منصرفة إلى كنس الشارع قبل بزوغ النهار بمكنسة ضخمة فى يديهـــا الصـــغيرتين الحمراوين ، ودمعة تترقرق فى عينيها الواســـعتين .

وفى تلك القرية كانــوا يســمونها القبــرة . فالعامة مولعون بالصور والتشبيهات ، لذا أطلق الناس عليها هــذا الاسم ، فهذه المسكينة الهزيلة لم يكن حجمها أكبر من حجم عصفور ، وهى ترتجف متداعية مرتعشة الاوصال ، وتنهض مبكرة كل صباح قبل ســائر من فى الدار ، بل قبل كل من فى القرية ، ويراها الناس دائما فى الشارع أو فى الحقول قبــل الفجر . أفلا تستحق إذن اسم القبرة ؟

وكل ما هناك ان قبرتنا المســكينة لم تكن تغرد أبدا .



كانت كوزيت فى هذه السن الغضة تكلف بقضاء الحاجات من الخارج ، وكنس الحجرات ، والفناء ، والشارع ..

الكتاب الخامس

الانحـــــدار

الفصل الأول

قصة تقدم فى صناعة الخرز الأسود

وهذه الأم التى قال عنها أهالى مونفرمى إنها ــ فيما يبدو ــ هجرت بنتها الطفلة وتخلت عنها ، ماذا جرى لها ؟ واين هى ؟ وماذا كانت تصنع ؟

بعد أن تركت كوزيت الصغيرة وديعة بالأجر لدى آل تنردييه . واصلت طريقها ووصلت إلى مدينة « م » (مسقط راسها القديم) .

وكان هذا ــ كما ذكرنا ــ فى سنة ١٨١٨

وكانت فانتين قد غادرت إقليمها منذ اثنى عشر عاما ، تغيرت فيها مدينة « م » من وجوه كثيرة . فبينما كانت فانتين تنحدر وتهبط درجات التعاسة بعيدا عنها ، كانت المدينة مسقط راسها تزدهر وتكبر .

ومنذ عامين حدث فيها حدث صناعى فذ ، يعد علامة بارزة فى حياة بلدان الأقاليم الصغيرة .

ولما كان هــذا الحدث هاما ، لذا نحب أن نتعرض له بالتفصيل ، كى نبرز اهميته فى قصتنا . فمنذ أزمان لا تعيها الذاكرة كانت بلدة « م » هــذه متخصصــة فى صناعة تقليد الخرز الاسود الذى كانت المانيا مشهورة به . وظلت هــذه

الصناعة الصغيرة خاملة بسبب غلاء ثمن المواد الأولية ، غلاء ينعكس على بخس أجور اليد العاملة فيها . وفى وقت عودة فانتين إلى « م » تم تحول غير منتظر فى إنتاج هذه « المواد السوداء » . ففى أواخر سنة ١٨١٥ جاء للاقامة فى المدينة رجل غريب مجهول ، وعنت له فكرة استخدام الجمالكة بدلا من الراتنج فى صنع اساور الخرز الاسود بصفة خاصة ، وما إليها من حلى النساء الرخيصة المصنوعة من هذا النوع من الخرز ، فكان ذلك نقطة تحول باهرة فى هذه الصناعة المحلية الخاملة ، لأن هذا الابتكار خفض ثمن المواد الأولية كثيرا جدا ، مما اتاح قبل كل شىء رفع اجور العاملات والعاملين فيها . وفى هذا مصلحة عامة للسكان . كما اتاح تحسين الصناعة نفسها ، وفى هذا مصلحة للمستهلكين ، وسمح للمنتج ببيع سلعته المحسنة بثمن ارخص فى الوقت الذى تضاعف فيه ربحه ثلاث مرات ودفع به إلى ذرى الثراء بخطى واسعة .

وهكذا نتجت عن هذه الفكرة الواحدة الصائبة ثلاث نتائج جزيلة النفع .

وفى اقل من ثلاث سنوات صار صاحب هذا الابتكار رجلا ثريا . وهذا حسن . واصبح كل المحيطين به ارغد عيشا ، وهذا احسن ! وكان غريبا عن الإقليم (المحافظة) ولم يكن احد يعرف شيئا عن اصله . ولم يكن احد يعرف الكثير عن بداياته فى الحياة .

وتردد على الالسنة أنه جاء إلى المدينة ومعه مبلغ

ضئيل جدا من المال ، بضع مئات قليلة من الفرنكات على الأكثر . وقد وظف هذا الرأسمال الضئيل فى خدمة وتنفيذ فكرة بارعة مبتكرة ، ورعاها بالمثابرة والروية وحسن التدبير ، وهكذا استخرج من ثمراتها ثروته وثروة هذه البلدة كلها .

فعند وصوله إلى « م » لم يكن يملك إلا ما عليه من ثياب ، وسحنة عامل ، وكذلك لغته ولهجته وطريقته فى التعامل . ويبدو انه فى نفس يوم وصوله إلى « م » فى هدوء غير ملحوظ ، قرب حلول الليل فى شهر ديسمبر ، وكيسه فوق ظهره وعصاه الغليظة المعقدة كالهراوة فى يده ، شب حريق كبير فى دار كبيرة للمساكن الحكومية ، فاذا بهذا الرجل يلقى بنفسه وسط النيران ويعرض حياته للخطر لينقذ طفلين اتضح أنهما طفلا رئيس الشرطة . وترتب على هذا العمل البطولى الباهر ان احدا لم يفكر من أولى الأمر ان يسأله عن جواز مروره . ومنذ ذلك اليوم عرف الجميع اسمه. كان اسمه « الأب مادلين » ! MADELEINE .

الفصل الثانى

مادلين

كان رجلا فى نحو الخمسين من عمره ، يبدو عليه انشغال البال ، وتبدو عليه الطيبة . هذا كل ما أمكن قوله عنه .

وبفضل التحسينات السريعة فى هذه الصناعة التى أجاد مادلين ابتكارها ، صارت مدينة « م » مركزا هاما للأعمال . فاسبانيا التى تستهلك كمية هائلة من الخرز الأسود ، صارت تشترى كل عام منها مقادير هائلة . وصارت مدينة « م » من هذه الناحية التجارية تكاد تنافس لندن وبرلين، وكانت أرباح الأب مادلين من الضخامة بحيث إنه منذ السنة الثانية استطاع أن يشيد مصنعا كبيرا فيه ورشتان كبيرتان . إحداها للرجال والأخرى للنساء . وكل من شعر الجوع ما عليه إلا أنه يتوجه إلى هناك ، واثقا بانه سيجد حتما الخبز والعمل . وكان الأب مادلين يطلب من الرجال الارادة الطيبة ، ومن النساء حسن السير والسلوك ، ويطلب من الجميع الأمانة . وكان قد قسم الورش للفصل بين الجنسين ولكى يحافظ على رزانة النساء والفتيات من نزغات الطيش من مخالطـــة الرجال . وكان فى هذه الجزئية لا يعرف الهوادة . ولعل هذه المسألة هى التى لم يكن يتساهل فيها . وقد زاد من تشرده فى ذلك أن مدينة « م » بها معسكر للقوات المسلحة ، ولذا كانت فـــرص الفســـــاد والفسوق فيها كثيرة . ومن هذه الجهة كان قدوم الأب مادلين

إلى المدينة خيرا وبركة ، وكأنه مبعوث العناية الإلهية لإنقاذ أهلها من الفاقة وسوء الحال واللذين كانت المدينة ترزح تحتهما سنين طويلة ، وهما معوان على التبذل والفساد . أما وقـــد تحسنت الأحوال ، ولم يعد أحد يشكو الحاجة ، فقد صينت الأعراض وبدأت المدينة تعيش حياة العمل السوية ، التى تدور فيها الدماء فى الكيان الاجتماعى دورة صـــحيحة تقضى على الوهن والعلل . فقد اختفت البطالة والعوز . فلم يعد هناك جيب مهما كان مغمورا لا تجد فيها شيئا من النقـــود ، ولا مسكنا مهما كان فقيرا لا تجد فيه شيئا من البهجة .

كان الأب مادلين يستخدم الجميع ، ولم يكن يشترط عليهم جميعا إلا شرطا واحدا :

ـــ كن رجلا شريفا ! كونى فتاة شريفة !

وكما قلنا آنفا ، وسط هذا النشاط الذى كان هو سببه ومحركه ، تراكمت ثروة الأب مادلين . ولكن ـــ وهذا شىء جد غريب فى رجل تجارة بسيط ـــ لم يكن يبدو عليه أن هذا كان همه الأكبر . بل كان يبدو عليه أنه شديد الاهتمام بالآخرين ، قليل الاهتمام بنفسه . وفى سنة ١٨٢٠ كان المعروف عنه أنه يملك ستمائة وثلاثين ألف فرنك مودعة باسمه لـــدى لافيت LAFFITTE . ولكنه قبل أن يحتجز لنفسه هذه الستمائة وثلاثين ألفا من الفرنكات كان قد أنفق أكثر من مليون لإصلاح المدينة وتحسين حال الفقراء .

ولما وجد المستشفى قليل المعدات ، جهزه وأمده بعشرة أسرة جديدة . وكانت « م » مقسمة إلى مدينة عليا وأخـــرى

دنيا ، والمدينة الدنيا حيث كان يقيم لم تكن فيها إلا مدرسة واحدة ، عبارة عن كوخ تعس متداعى البنيان ، فشيد مدرستين ، إحداهما للبنات والأخرى للبنين . وخصص من جيبه الخاص للمعلمين اللذين يقومان بالتدريس فيهما ضعف مرتبهما الرسمى الهزيل . وذات يوم قال لشخص أبدى دهشته لذلك :

— ان اول واهم موظفين فى الدولة هما المرضع ومعلم المدرسة !

كما انشأ على نفقته الخاصة ملجأ ، وهذا شىء يكاد يكون غير مسبوق يومئذ فى فرنسا ، وانشأ صندوقا لإعانة العمال المسنين والعجزة .

ولما كان مصنعه مركزا لحى جديد كان فيه عدد كبير من الأسر المحتاجة التى سرعان ما تكاثرت من حوله ، لذا انشأ صيدلية مجانية ايضا .

وفى الأيام الأولى من بداية نشاطه هناك ، قال الناس:

— هذا شخص يريد ان يثرى .

ولما راوه يثرى البلد قبل ان يثرى هو ، قالوا :

— هذا رجل طموح !

وخالط هذا الظن لديهم ظن آخر بانه رجل متدين ، ولا سيما انه كان يمارس طقوس الدين وشعائره فى حدود معينة . وذلك كان شيئا يراه الناس فى ذلك الحين امرا مرغوبا فيه . فقد كان يذهب كل يوم احد لحضور القداس فى

الساعة السابعة . ولكن نائب تلك الدائرة ، الذى كان يتشمم المنافسة حيثما كانت بدأ ينظر إلى هذا التدين بعين القلق والارتياب. وكان هذا النائب عضوا فى الهيئة التشريعية فى عهد الإمبراطورية ، وكان يرى فى التدين مثل راى ولى نعمته الذى كان قسيسا قبل الثورة ثم صار فى عهدها مشهورا باسم فوشيه ، FOUCHE وتقلد رئاسة الشرطة ووزارة الداخلية على ايام الإمبراطور وصار اسمه دوق اوترانت OTRANTE ولذا كان فى خلواته مع خاصته يسخر من فكرة الله . فلما راى صاحب المصنع الثرى يذهب فى السابعة من صباح يوم الأحد إلى الكنيسة لسماع القداس الإلهى ، توسم فيه منافسا محتملا ، وقرر ان يتفوق عليه هذا المضمار ، فاتخذ له « قس اعتراف » من الجزويت ، وصار يحضر القداس الكبير وقداس المساء ايضا ! فالطموح فى تلك العهد كان يتجلى فى السباق نحو برج الكنيسة ! وقد استفاد الفقراء من هذه المنافسة وهذا الفزع اكثر مما استفاد الرب ، لأن النائب انشأ فى المستشفى ايضا سريرين باسمه ، بالإضافة إلى العشرة التى سبقه إلى إنشائها مادلين ، فصار المجموع اثنى عشر سريرا مجانيا .

ولكن فى سنة ١٨١٩ انتشرت الشائعة ذات صباح فى المدينة أن المحافظ بناء على الخدمات التى اداها المسيو مادلين للإقليم ، قد التمس من جلالة الملك تعيينه عمدة للمدينة . فتلقف من ظنوا به انه طموح هذه الشائعة وتصايحوا :

— ارايتم ؟ او لم نقل لكم ؟

ولم تكن هذه الشائعة بلا اساس ، فبعد بضعة ايام

نشرت صحيفة المونيتير MONITEUR نبأ هـذا التعيين . ولكن فى اليوم التالى رفضه الأب مادلين !

وفى نفس هذه السنة ١٨١٩ ظهرت الطريقـة الجديدة التى ابتكرها مادلين فى المعرض الصناعى ، وبناء على تقرير لجنة التحكيم انعم جـلالة الملك على المخترع بوسـام فيلق الشرف من طبقة فارس . وعندئذ تصايح هؤلاء :

ـ هذا هو الوسام الذى كان يصبو إليه !

ولكن الأب مادلين رفض الوسام ايضا !

وقال الناس ان هـذا الرجل لغـز غامض . وقـال الحاسدون :

ـ إنه على كل حال رجل مغامر !

وواضـح ان الإقليم كان مدينا له بالشىء الكثير ، وان الفقراء كانوا مدينين له بكل شىء . وكان نفعه عميما بحيث انتهى بالناس الأمر إلى احترامه وإجلاله . وكان دمثا فانتهى بهم الحال إلى حبه . وكان عماله على الخصوص يحبونه حب العبادة ، فى وقار وتوقير .

ولما تأكد للناس ثراءه ، صار « اقطاب المجتمع الراقى » يحيونه ، وصار اهل المدينة يقولون عنه « المسيو مادلين » ، لا « الأب مادلين » . اما العمال والأطفال فاستمروا يلقبونه « الأب مادلين » ولا يعدلون بهذا اللقب شيئا . وكان هـو يبتسم لسماع ذلك قرير العين .

ولما ارتفع نجمه انهمرت عليه الدعوات إلى الحفـلات والصالونات التى كانت فى البداية موصدة الأبـواب فى وجه الصانع ، انفتحت ابوابها على مصراعيها للمليونير ! وعبثـا تقربوا منه ، لانه رفض جميع هذه الدعوات .

ولم تجد السنة السوء تعليلا لموقفه ، فقالوا :

ـ هذا رجل جاهل لم ينل حظا من التعليم او التربيـة الحسنة ، ولا يدرى احـد من اين جاء . وهو يعلم انه لن يحسن السلوك فى الأوساط الراقية . وليس من الثابت انه يعرف القراءة ...

ولما راوه يربح الأموال الطائلة . كانوا قد قالوا عنه :

ـ هذا طبيعى . إن هو إلا تاجر !

ولما راوه ينفق امواله وينذرها فى اعمال الخير ، كانوا قد قالوا :

ـ إن هذا إلا طموح !

ولما راوه يرفض المناصب والأوسمه ، كانوا قد قالوا :

ـ إن هو إلا مغامر افاق !

ولما راوه يرفض ارتياد المجتمع الراقى ، قالوا :

ـ إن هو إلا جلف !

وفى سنة ١٨٢٠ ، بعد وصوله إلى مدينة « م » ، كانت خدماته العامة قد غدت باهرة مجلجلة الدوى ، واجمعت رغبة

الناس على اختلافهم على تزكيته ، بحيث عينـــه جلالة الملك عمدة للمدينة مرة اخرى . ورفض ايضا . ولكن محافظ الإقليم أصر فى هذه المرة على مقاومة رفضــــه ، وجاء كل الأعيـــان والوجهاء يرجونه ان يقبل المسئولية الجديدة . بل إن افراد الشعب صـــاروا يلقونه فى عرض الطـــريق ويلحـــون عليه ويتوسلون إليه . وامام هذا الالحاح الشـــديد لم يجد بدا من القبول فى النهاية .

ولوحظ ان ما حفـــزه إلى الرضـــوخ كان على الأخص تبكيت وجهته إليــــه امراة عجوز من نساء عامة الشـــعب ، صاحت به فى غضب من فوق عتبة بابها وهو مار به :

— العمدة الصالح نافع للناس . فكيف يجوز لإنســــان صالح ان ينكص امام خير ونفع يمكن ان يؤديهما للناس ؟

وكانت هذه هى المرحلة الثالثة فى مراقى صـــعوده . فصار الأب مادلين المسيو مادلين ، والمســـيو مادلين صـــار سيادة العمدة !

الفصل الثالث

مبالغ مودعة عند لافيت

وفيما عدا هـــذا ظل بسيطا فى كل شىء كما كان فى اول يوم . وكان شعره اشيب ، وعيناه جادتين ، وبشرته مسفوعة كالعمال ، ووجهه متفكر كالفلاســـفة . وكان يلبس فى العادة قبعة عريضة الطنف ، وبدلة ردنجوت من الصوف الغليظ مزررة حتى العنق . ويمارس عمله كعمدة ، ولكن فيمـــا عدا هذا كان يعيش وحيدا فى عزلة . فهو لا يتحدث إلا مع قلة من الناس . ويتجنب المجاملات ، ويحيى الناس تحيـــة جانبية ، ويبتسم ليتحاشى الكلام ، ويجود بماله ليتحاشى الابتسام . وكانت النساء تقلن عنه :

— يا له من دب طيب !

ولذته الوحيدة التنزه سيرا على الأقدام فى الحقول .

وكان يتناول وجبات طعامه دائما بمفرده ، وامامه كتاب مفتوح يقرأ فيه . فلديه مكتبة حسنة . يحب الكتب ، لأن الكتب اصدقاء باردون مأمونون . ومع توفر وقت الفراغ لديه بعـــد ان اثرى ، بدا واضحا انه استغله لتثقيف فكره . ومنذ حـــل بمدينة «م» لوحظ عليه ان لغته تزايد رقيها وتهذيبها وصقلها ، فصارت الفاظه عذبة منتقاة .

ومن عادته ان يحمل فى نزهاته الخلوية بندقية ، ولكنه



وكان الأطفال يحبونه ايضا لانه كان يعرف كيف يصنع لعبا صــغيرة من القش ».

قلما كان يستخدمها . وإذا حدث منه هذا مصادفة كان تصويبه دقيقا مفزعا . ولم يقتل قط حيوانـا لا اذى منـــه ، ولا طائرا صغيرا .

ومع أنه لم يعد شابا ، إلا أنه تروى اقاصيص عن قوته الخارقة . وكان يمد يد المساعدة البدنية لمن يراه بحاجة إلى هــذا ، مثل إقامة حصـــان وقع على الأرض ، أو دفع عجلة مغروسة فى الطين ، أو إيقاف ثور هائج بالقبض على قرنيه .

وكان على الدوام يخرج ملىء الجيوب بقطع العملة ، ويعود دائما خالى الوفاض . وعندما يمر فى قرية كان الأطفال شبه العراة يجرون خلفه بفرح ويلتفون حــوله كأنهم سحابة من صغار البعوض .

والاعتقاد السائد ـ تخمينا ـ أنه عاش حياته قبل قدومه للمدينة بين الحقول ، فقد كان عليمـــا بأسرار شتى نافعة فى الزراعة كان يعلمها للفلاحين . ولا سيما فيما يتعلق بالقضاء على الحشائش الطفيلية التى تضر بمحصـــول القمح ، وفيما يتعلق بحماية الدواجن من القوارض ، وما اشبه هذا .

وكان الأطفال يحبونه ايضا لأنه كان يعرف كيف يصنع لعبا صغيرة من القش .

وعندما كان يرى باب إحدى الكنائس وعليـــه شـــارة سوداء يدخل للعزاء . ويبحث عن انباء الجنازات ليشـــارك فيها ، مثلما يبحث الآخرون عن حفـــلات العرس او العماد . فالترمل والتعاسة كانا يجتذبانه لشدة عذوبة روحه ، لذا كان

بخالط الأصدقاء المحزونين ومن يلبسون الحداد ، والأسر التى تلبس السواد ، والكهنة الملتفين حول تابوت . وكان يألف مطالعة المزامير التى تتحدث عن رؤى العالم الآخــر . وكان يصغى دائما وعينه مرفوعة صوب السماء فى خشــوع وشعور بالالهــام لكل ما يتعلق بأسرار اللامتناهى ، ولتلك الأصــوات الحزينــة التى تترنم بأهازيج وتراتيل على حافة هاوية الموت الغامضة .

كانت اعماله الخيرية كثيرة جدا ، يقوم بها متخفيا مثلما يتخفى من يصنع الشر ، وكان يتسلل خلسة فى الليل إلى البيوت ، ويصعد السلالم خلسة ايضا ، ويعود الساكن الفقير إلى بيته بعد ذلك بأخرة من الليل فيجد باب مسكنه مفتوحا ، وقد يجده مغتصبا احيانا ، ويصيح مستنجدا بالناس لأن لصــا قد دخل المسكن فى غيابه . حتى إذا ما دخل كان أول ما يقع عليه نظره قطعة من النقود الذهبيــة فوق منضدة أو ما إليها ، فيعــرف الجميع أن اللص الذى حضر إنما هو الأب مادلين !

كان دمثا وحزينا . فكان العامة يقولون :

ــ هذا رجل غنى لا يبدو عليه الكبر أو الزهو . هــذا رجل سعيد لا يبدو عليه الرضا !

وكان بعضهم يزعمون انه شخصية غامضة ويؤكدون انه ما من احد يدخل حجرته الخاصة ، وهى « قلاية » أشبه بالزنزانة بل انها اشبه بصومعة ناسك . وشــاع هذا القول على ألسنة الناس ، حتى أن بعض الســيدات الشــابات الأنيقات من مجتمع مدينة « م » جئن إليه ذات يوم وسألنه :

ــ يا سيادة العمدة . أرنا حجرتك الخاصة . لانه قيل لنا أنها مغارة !

فابتسم ، وقادهن على الفور إلى هــذه « المغارة » ، فكان ذلك عقابا فوريا لهن على فضولهن . فهى حجرة مؤثثة أثاثا محترما بقطع من خشــب الأكاجــو ، ولكنه اثاث قبيح الشكل ككل أثاث مصنوع من هــذا النــوع من الخشــب . والجدران مغطاة بالورق . ولم يلاحظن فيها شيئا يلفت الأنظار اللهم إلا شمعدانين من طراز عتيق موضوعين فوق المدفأة ، ويبدو عليهمــا انهما مصنوعان من الفضــة ، لأنهمــا كانا مدموغين . وهى ملاحظة تنم على الذكاء فى المدن الصغيرة .

ومع هذا لم يكف الناس عن ترديد انها حجرة لا يدخلها احد ، وأنها مغارة ناسك ، أشبه بالجحر أو المقبرة .

وكان الناس يتهامســون ايضا بأنه يملك مبالغ « طائلة » مودعة لدى لافيت ، وأنها تحت طلبه فى أى لحظــة ، بحيث يستطيع المسيو مادلين ــ كما قيل ــ أن يحضر ذات صــباح إلى « لافيت » فيوقع إيصالا ويحمل مليونيه أو ملايينه الثلاثة وينصرف فى مدى عشر دقائق . وفى الواقع كانت هذه الملايين الثلاثة لا تزيد فى الحقيقة ــ كما ذكرنــا آنفا ــ على ستمائة وثلاثين أو أربعين الف فرنك .

الفصل الرابع

المسيو مادلين يرتدى الحداد

فى مستهل سنة ١٨٢١ نشرت الصحف نبأ وفاة المسيو ميرييل ، اسقف « د » الملقب بسيدنا بينفينى ، وكيف انه انتقل إلى الأمجاد السماوية بكل قداسة وهو فى سن الثانية والثمانين .

ونضيف هنا تفصيلات اغفلتها الصحف ، وهى ان اسقف « د » عندما توفى كان قد اصيب بالعمى منذ بضع سنين . وكانت اخته بجواره .

ونقول هنا بهذه المناسبة إن إصابة المرء بالعمى وحظوته بالحب يعدان من مصادر السعادة فى هذه الدنيا التى لا وجود فيها للكمال . فان تكون دائما إلى جوار المرء زوجة او ابنة او اخت ، تجدها كلما احتجت إليها ، فهى هناك لانك بحاجة إليها ، ولانها هى ايضا بحاجة إليك ولا يمكن ان تستغنى عنك ، وتقوم لك بكل ما هو ضرورى لك ، وتقيس إعزازها لك بمقدار وجودها إلى جوارك ، فتقول فى نفسك :

— ما دامت تخصنى بكل وقتها ، فكل قلبها إذن مملوك لى .

لانك ترى فكرها بدلا من رؤية وجهها، وتتلمس بأصابعك إخلاصها وسط دياجير هذا العالم ، وتسمع حفيف ثوبها

وكأنه رفرفة اجنحة الملائكة . وكلما سمعت وقع خطاها وهى مقبلة او مدبرة ، او سمعت صوتها وهى تتكلم أو تغنى ، احسست انك موضوع هذه الخطى ومحور هذه الأقوال والنغمات . فتشعر عندئذ انك فى منتهى القوة مع انك فى منتهى العجز ، وانك وسط الظلام الذى يحيط بك من كل جانب تحولت إلى نجم ساطع الضياء يدور فى فلكه هذا الملك الكريم. وما اقل مناعم الحياة التى تضارع هذا الشعور بالغبطة والهناء. لأنه شعور بانك محبوب لذاتك، لا لما يمكن ان تؤديه. وإنك محبوب رغم كل شيء ، بل ورغم إرادتك . وهذه نعمة كبرى لا يعرفها إلا الأعمى المحبوب . فكل خدمة تؤدى له فى محنته هذه فكأنها لمسة مداعبة او ملاطفة . فهل يعوزه بعد ذلك شيء ؟ كلا ! فما فقد النور من ملك الحب . واى حب ؟ حب كله فضل وفضيلة . ولا وجود للعمى حيث يوجد اليقين . فالروح تتلمس فى الظلام روحا اخرى وتجدها . وهذه الروح الأخرى الأمينة روح المراة . وإذا يد تسندك . إنها يد هذه المراة . وإذا فم يلثم جبينك . إنه ثغرها . وتحس تنفسا بقربك . انه تنفسها ! يا لها من سعادة ! وفى هذه النشوة الروحية يتفتح القلب كما تتفتح زهرة سماوية ! وكل انوار الدنيا لن تعدل عندئذ هذه الظلمة التى كلها إشراق علوى ! فهو ليس وحده ، بل معه دائما هذا الملك الطاهر . وإذا ابتعدت فلكى تعود ، تتلاشى كالحلم وتعود للظهور كالواقع . فاذا احس دفئا يقترب منه ، عرف انها هى . وتشيع الفرحة فى النفس وتمتلىء الدنيا المظلمة بانوار الانس والأمان . لان هذه المراة الملك صارت عوضا عن فراغ العالم ودياجيره .

ولئن لم ير شيئا ، فهو يلمس روح الرحمـــة والحب ، وليس كاللمس يقين يغنى عن العيان الذى قد يخدع . وهـــذا هو الفردوس الذى لا يتجلى إلا فى الظلام . وفى هذا الفردوس عاش سيدنا بينفينى ، ومنه انتقل إلى الفردوس العلوى .

وكانت صحيفة «م» المحلية قد نشرت نبأ وفاة الأسقف ، فظهر المسيو مادلين فى اليوم التالى وقد وضع شارة سوداء على قبعته .

ولاحظ الناس هـــذا الحداد ، وبدأت الثرثرة . وانتهت إلى أن صلة قرابة لابد أنها تربط المســيو مادلين بالأسقف . فالقى هذا بعض الضوء على أصل المســيو مادلين . وقالت سيدات الصالونات :

ـ إنه يلبس الحداد على نيافة أسقف « د » !

فرفع هذا من قدر المسيو مادلين رفعة عظيمة ، وصار له فجأة اعتبار كبير فى مجتمع « م » من أبناء الطبقة النبيلة . وفكر ما يقابل فى « م » حى سان جرمان فى باريس . فى رفع الحظر عن المسيو مادلين ، ما دام قد بات محتمـــلا أنه يمت بصلة قربى إلى أمير من أمراء الكنيسة . ولاحظ المسيو مادلين أنه صـــار يتلقى تحيات أشـــد حرارة وحفاوة من العجائز ، وابتسامات أشد إشراقا من الشابات . وذات مســـاء قالت عميدة هذه النخبة الممتازة من نساء العلية ، مدفوعة بالفضول وبحقوق التقدم فى السن :

ـ يا سيادة العمدة . أنت لا شـــك ابن عم للمرحوم أسقف « د » .

فأجابها :

ـ لا يا سيدتى !

فقالت السيدة بدهشة :

ـ ولكنك تلبس عليه الحداد . . .

فقال :

ـ ذلك أننى فى شبابى كنت خادما فى أسرته !

ولاحظ الناس أيضا شيئا آخر ، أنه كلما مر فتى من أهالى جبال سافوا بالمدينة من الفتيان الذين يجوبون الإقليم لتنظيف المداخن ، كان سيادة العمدة يستدعيه ، ويسأله عن اسمه ، ويعطيه نقودا . وكان الفتيان يتناقلون هذا ، فصار عدد أكبر من فتيانهم يتوافدون على المدينة .

الفصل الخامس

وميض غامض على الأفق

رويدا رويدا ، وبمـرور الوقت تلاشـت كل انـواع المعارضة . وفى البداية كان هناك ضد المسيو مادلين نوع من القانون يتصدى دائمـا لكل من يرتفع ذكره ويصـعد مراقى النجاح ، فى صورة أحقاد وتنديدات ، ثم تحولت التنديدات إلى مناوشـات ، لم تلبث أن خفت فصـارت لونـا من التلميح والتعريض ، ثم تلاشى هذا ايضا ، وصار احترامه تاما لدى الجميع ، بكل مودة قلبية . حتى إذ حلت سنة ١٨٢١ صارت كلمـة سيادة العمدة فى « م » تقال بنفس لهجة التوقير التى كان يقال بها « نيافة الأسقف » أو « سـيدنا الأسقف » فى « د » فى سنة ١٨١٥ . وصـار الناس يتوافدون من مسيرة عشرة فراسـخ لاستشارة المسـيو مادلين . وكان يفض الخلافات ويسوى المنازعات ، ويصالح الأعداء ، ويحول دون رفع الدعاوى القضائية . لأن الكل كانوا يرتضونه قاضـيا يحكم بينهم بقانونه الخاص حسبما يتراءى له . حتى لكأن روحه ينطوى على كتاب القانون الطبيعى . فكان هذا النوع من الإجلال يسرى بالعدوى بين الناس حتى شمل الإقليم كله فى ست سنوات أو سبع . . .

وكان فى المدينة ، بل وفى الدائرة كلهـا رجل واحد لم تنتقل إليه هذه العدوى ، ومهما فعل المسيو مادلين ظل هذا

الرجل متمردا ، كأنمـا أوتى غريزة غامضـة توقظ سريرته وتحفزها ضد المسيو مادلين وتسىء به الظن .

ويبدو فعـلا ان لـدى بعض الناس غريزة حيوانية او بهيمية حقيقية لا يمكن لأحـد أن يتدخل فى نشاطهـا الأعمى المحـايد ، ولا يمكن ترويضها ، وتسـيطر على صـاحبها سيطرة تامة ، شـأن كل غريزة لدى الحيـوان . وهى التى تخلق لدى صاحبها شعور التعاطف أو النفور التلقائى ، وهى التى تفرق بين طبيعة واخرى، ولا تخطىء ولا تخدع ولا تنخدع ابدا . وهى ذات مضاء لا يعرف الهوادة او التردد ، وتتمتع بوضوح من نوع غامض ، ولا تصغى ابدا لصوت العقل ولا لما قد يشير به الذكاء . فهى اشبه بغريزة الكلاب ، ولا سـيما كلاب الصيد ، وتجعل من صاحبها ككلب الصيد فعلا . . وتنبه صاحبها لخصمه الطبيعى مثلما تنبه الغريزة الكلب إلى وجود قط بالقرب منه ، ولو كان متواريا عن النظـر . فاذا بالرجل الكلب يشعر بالعداوة والتنمر للرجـل القط . وإذا بالرجـل الثعلب يشعر بوجود الرجل الأسد !

وفى كثير من الأحيان ، عندما كان المسيو مادلين يمـر بشارع ، فى هدوء ودود تحف به بركات الجميع ودعواتهم ، كان يتفق أن يلتفت وراءه فجـأة رجل طويل القامة يرتدى ردنجوتا رماديا بلون الحديد ، وفى يده عصا غليظـة ، وعلى راسه قبعـة ساقطة على عينيـه ، ويتعقبه بنظراته إلى أن يختفى عن الأنظار ، وقد عقد ذراعيه على صدره ، ويهز راسه ببطء ، ويرفع شفته العليا وقد زمت إليها الشفة السفلى إلى أن تلامسا أنفه . وهى تمعيجة لملامح السحنة كأنها تقول :

— ولكن من عساه يكون هذا الرجل ؟ أنا متأكــد أننى رأيته فى مكان ما . ولكنى على كل حال لست الغر الذى ينخدع به !

وهذا الشخص الجاد العابس عبوســا يكاد ان يكون توعدا ، كان من النوع الذى ما إن تقع عليه العين حتى يشغل البال .

كان اسمه جافير JAVERT وكان من هيئة الشرطة .

وكان يشغل فى مدينة « م » منصــبا اليما ولكنه نافعا ، وهو منصب المفتش . ولم يكن معاصرا لبداية المسيو مادلين فى مدينة « م » . وكان جافير مدينا للمنصب الذى يشـــغله لرعاية وحماية المسيو شابوييه CHABOUILLET ، السكرتير الخاص لوزير الدولة الكونت انجليس ، الذى كان يومئذ مدير الشرطة فى باريس . وعندما وصل جافير لتولى منصبه فى «م» كان صاحب المصنع قد جمع ثروته وانتهى الأمر ، وكان الأب مادلين قد صار المسيو مادلين .

ولبعض ضباط الشرطة سحنة خاصـــة بهم ، تتعقد سيماها بما يمتزج فيها من خساسة وســلطة . وكان لجافير هذه السحنة ، ولكن بدون الخساسة .

وفى اعتقـــادنا انه لو كانت الأرواح مما تراه الأعين ، لرأينا بوضوح تام ذلك الشىء الغريب الذى يعزوه كل فرد من افراد النوع البشرى إلى أفراد المملكة الحيوانية . وامكننا أن نتعرف فى سهولة ويسر على تلك الحقيقة التى يلمحها المفكر .

وهى أن جميع مراتب الحيوانات بدءا بالمحارة وانتهاء بالنسر ، وبدءا بالخنزير وانتهاء بالنمر ، موجودة فى الإنســـان ، وأن طبيعة احد هذه الحيوانات موجودة فى فرد من بنى الإنسان . وفى بعض الأحيان توجد فى الفـــرد من البشر طبائع عدد من هذه الحيوانات فى آن واحد .

فالحيوانات ليست شيئا آخر سوى صـــور فضـــائلنا ورذائلنا غادية رائحته امام أعيننا ، وكأنها الأشباح المرئية لنفوسنا وارواحنا . والله يرينا إياها كى يجعلنا نفكر ونتدبر . ولما لم تكن الحيوانات إلا ظـــلالا ، لذا لم يجعلهـــا الله قابلة للتهذيب والتثقيف بمعنى الكلمة . وما الجدوى ؟ اما ارواحنا فحقائق ولها غاية خاصة بهـــا ، لذا وهبهـــا الله الذكاء ، اى القدرة على التعلم والتثقف . فالتربية الاجتماعيـــة الجيـــدة يمكنها دائما ان تستخرج من النفس البشريـــة — ايا كانت — ما تنطوى عليه من نفع .

وهذا الكلام ينصب — طبعا — على الحياة الأرضـــية المحدودة الظاهرة للعيان ، فلا يمتد إلى الموضـــوع الاعوص من هـــذا ، وهو موضـــوع الشخصـــية السابقة أو اللاحقة للكائنات فهى ليست خاضعة لأحكام البشر . والذات المرئية الظاهرة لا تبيح للمفكر بأى حـــال أن ينكر وجـــود الذات الكامنة . اما وقد ذكرنا هذا الاحتراز ، فلنمض فى سياق كلامنا قدما .

ومتى اتفقنا على ان كل إنسان نوعا من انواع الحيوان التى تعيش على الأرض ، سهلَ علينا أن نقول ماذا كان نوع ضابط الأمن جافير .

إن بعض الفلاحين يعتقدون ان كل بطن تلدها الذئبة يكون من افرادها كلب وان الذئبة الأم تقتله بمجرد ولادته ، وإلا التهم ابناءها الآخرين متى كبر .

فلو أعطيت وجها بشريا لهذا الكلب المولود من ذئبة ، لكان هو جافير ! ...

وجافير ولد فى السجن ، وضعته أمه العرافة التى تتكهن بالغيب عن طريق أوراق اللعب . اما زوجها فكان محكوما عليه بالأشغال الشاقة . وشب وهو يعتقد انه منبوذ من المجتمع ، وانه لا سبيل له إلى العودة لأحضان هذا المجتمع ابدا . ولاحظ ان المجتمع المحترم ينفى من حظيرته فئتين من الناس : من يعتدون عليه ، ومن يقومون على حراسته . فلم يكن له إذن خيار إلا بين هاتين الفئتين . وفى الوقت نفسه كان يحس فى نفسه نواة دفينة فى اغوارها من الصرامة والانتظام والامانة ، مقرونة بمقت لا يمكن التعبير عنه لتلك السلالة البوهيمية التى انحدر منها . فدخل خدمة الشرطة . ونجح فيها . وفى سن الاربعين غدا مفتشا فى مدينة « م » .

وكان قد عمل فى شبابه بسجون الجنوب .

ويجب قبل ان نمضى فى قصتنا ان نتفق على معنى كلمة « الوجه البشرى » الذى عزوناه منذ قليل إلى جافير .

كان وجه جافير البشرى عبارة عن انف افطس بمنخرين غائرين ترتفع صوبهما على خديه سالفتان ضخمتان من الشعر . وكان الناظر إليه يشعر لأول وهلة بعدم ارتياح متى

وقع نظره على هاتين الغابتين وهذين الكهفين . وعندما كان جافير يضحك ، وهذا أمر نادر ورهيب ، كانت شفتاه النحيلتان تتباعدان ، فلا تظهر من بينهما أسنانه فحسب ، بل لثته ايضا ، وتتكون اخاديد عميقة وحشية حول انفه كالتى ترى حول خطم الحيوان المفترس الضارى . اما جافير الجاد فله وجه كلب . اما حينما يضحك ، فوجهه وجه نمر . وجبهته ضيقة ، ويافوخه صغير ، وفكاه كبيران . وشعره يغطى جبهته ويهتدل على حاجبيه ، وبين عينيه خط غائر دائم الظهور كانه كوكب الغضب ، ونظرته قاتمة ، وفمه مزموم مخيف ، وفى سحنته كلها سيطرة امر ونهى وحشية .

وهذا الرجل مركب من شعورين بسيطين وطيبين نسبيا ، ولكنه يجعلهما سيئين بالمبالغة التى يمارسهما بها . وهذان الشعوران هما احترام السلطة وكراهية التمرد . وفى نظره لم تكن السرقة ، ولم يكن القتل إلا صورتين من صور التمرد . وكان يحيط بهالة من الإيمان الأعمى والعميق معا كل من له وظيفة فى الدولة ، بدءا بالوزير الأول وانتهاء بخفراء الحقول . ويغمر بالازدراء والنفور والتقزز كل من تخطى مرة واحدة العتبة القانونية للشر . كان إطلاقيا فى احكامه ولا يعرف فيها هوادة ولا استثناء . فهو من ناحية يقول :

ـ إن الموظف لا يمكن ان يخطىء . والقاضى ورجل القانون دائما على حق .

ومن ناحية اخرى يقول :

ــ هؤلاء الناس هالكون هلاكا لا رجعة فيه . ولا يمكن ان ياتى منهم خير .

فكان يشارك بكل جوارحه راى المتشددين الذين يعزون إلى القانون البشرى قدرة لا حد لها على دفع الأبالسة وفرزهم ليكونوا إلى الأبد فى قــاع المجتمع . وكان فى الوقت نفســه رواقيا ، جادا ، صارما ، زاهدا . وكان حالما حزينا متواضعا ومتعاليا فى آن واحد شــأن كل المتعصبين . ونظرته كانت اشبه بالمثقاب، فهى باردة نفاذة . وكانت حياته كلها فى هاتين الكلمتين : السهر والمراقبة . وادخل سياسة الخط المستقيم فى اشد امور الدنيا التواء . فهو واع بجدواه ونفعه للمجتمع وبقداســة مهمتــه الرســمية . وكان جاسوســا يقدس الجاسوسية ويمارسها كما يمارس الكاهن واجباته . وويل لمن يقع تحت يده ! فهو خليق ان يقبض على ابيه إن هرب من الليمان ، وان يبلغ عن امه إن خرقت اهون اللــوائح . وكان حريا ان يقدم على هذا بذلك الارتيــاح الداخلى الذى توفره الفضيلة لمن يمارسونها بإيمان . اضف إلى هذا انه كان يعيش حياة حرمان وعزلة وانكار ذات وعفة ، وليست له اى ملهاة او تسلية . فهو الواجب الصارم ، وهو الشرطة ، على نحو ما كان يفهم الإسبرطيون اسبرطة وينمتون إليها . فامانته بلا حدود ، وفيها ضراوة .

فكل شخصية جافير كانت تعبر عن الرجل الذى يرقب وهو متوار متربص . ولم يكن احد يرى جبينه المتوارى تحت

قبعته ، او يرى عينيه المتواريتين تحت حاجبيه ، او يرى ذقنه الغائص فى رباط عنقه ، او يديه المدسوستين فى كميــه ، او عصاه التى كان يحملهــا تحت ردنجوتــه . ولكن متى حانت الفرصة الملائمة ، رايت على حين غرة جبينــا بارز العظام ضيق المســاحة ، ونظرة قاسية وذقنا متوعدا ، ويدين كبيرتين وعصا رهيبة ، وكانما هى قد برزت من كل هــذه الظــلال الخفية .

وفى لحظات فراغه ، وهى جد قليلة ، كان على كراهته للكتب يقرا ، ولذا لم يكن اميا تماما . وكان هذا باديا فى شىء من الطنطنة فى كلامه .

ولم تكن له اى رذيلة ، كمــا قلنــا ، ولكن عندما كان يرضى عن نفســه ، كان يسمح لها بمضغة طباق . وكانت هذه همزة الوصل بينه وبين البشرية .

ومن اليسير ان ندرك بلا مشقة ان جافير كان مصــدر فزع لتلك الفئة التى تنعتها الإحصاءات السنوية لوزارة العدل بانها فئة المشبوهين . فالتفوه باسم جافير كان كافيا للياذهم بالفــرار ، اما رؤيــة وجه جافير فكانت تجعلهم يتسمرون جامدين كالتماثيل فى مواضعهم .

وهكذا كان هذا الرجل المروع .

وكان جافير كانه عين مثبتــة على المســيو مادلين . لا تفوتها منه حركة او سكنة . عين ملئها الريب والظنون . وانتهى الأمر بالمسيو مادلين إلى التنبه لهــذا كله ، ولكنــه

تظاهر بأنه لا يعنى فى نظره كثيرا ولا قليـــلا . بل ولم يوجه بصدده سؤالا واحدا إلى جافير ، ولم يكن يتعمـــد لقاءه ، أو يتحاشاه ، وتحمل — من غير أن يبدو عليه التنبه للأمر — تلك النظرة الثقيلة . وكان يعامل جافير كما يعامل كل الناس بيسر وطيبة .

ومن بضع كلمات أفلتت من جافير فطن السامع أنه بحث سرا ، مدفوعا بذلك الفضـــول الذى مبعثه الغريزة والإرادة معا ، عن كل الآثار الســابقة التى يمكن أن يكون الأب مادلين قد خلفها وراءه فى أماكن أخرى قبل قدومه إلى مدينة « م » . ويبدو أنه كان يعرف ، وكان يقول أحيانا بعبارات مستورة ، إن بعضـــهم قام بتحريات وجمع معلومات فى إقليم معين عن عائلة معينة اختفت من الوجود . ووصل ذات مرة إلى حد القول ، وهو يحدث نفسه :

— اعتقد أننى ضيقت عليه الخناق !

ثم ظل ثلاثة أيام غارقا فى التفكير . ويبـــدو أن الخيط الذى خاله بين يـــديه تمـــاما قـــد انقطع . وفى هذا ما يكفى لتصحيح بعض الصفات المطلقـــة التى نعتنا بهـــا الغريزة الحيوانية ، عندما قلنا إنها لا تخطىء . فالحق أنه ما من شىء فى حياة البشر جدير بهذا الوصف . جل من لا يخطىء . فكل ما تملكه الغريزة من قدرة أحيـــانا هو التنبـــه والاضطراب ، ولكنها قد تدرك هدفها وتصل إليه ، وقد تتنكب الطريق كمـــا يفقد كلب الصيد رائحة الطريدة . ولولا هذا لكانت الغريزة

أرقى من العقل ، أو الذكاء . ولكانت البهائم أكثر استنارة من الإنسان .

ومن ثم نقول إن غريزة جافير اهتزت واضطربت لمـــا واجهت كل هـــذا الهدوء والثبات الطبيعيين لدى المســـيو مادلين . ولكن ذات يوم يبدو أن مسلكه الغريب ترك انطباعا خاصا لدى المسيو مادلين . وكانت هذه هى مناسبة ذلك .

الفصل السادس

الأب فوشليفان FAUCHELEVENT

كان المســيو مادلين مارا ذات صــباح فى حارة غير مرصوفة فى مدينة « م » ، عندما سمع ضجة ورأى جمعا من الناس على مبعدة فاتجه صوبه . فاذا رجل مسن اسمه الأب فوشليفان قد سقط لتوه تحت عربــة نقله التى خـر حصانها صريعا .

وفوشليفان هذا كان من الاعداء القلائل الذين ما زالوا يحقدون على المسيو مادلين فى ذلك العهد . فعندما وصـل مادلين إلى هذا الإقليم كان فوشليفان كاتبا عموميا ســابقا ومزارعا شبه متعلم ، يمارس تجارة بدأت تتجه نحو الكساد . ورأى فوشليفان هذا العامل البسيط يثرى ، فى حين كان — وهو « المعلم » المحترم — يهوى إلى الإفلاس . فملأه هذا حسدا وغيرة ، وصنع غاية ما أمكنه فى كل مناسبة للاضرار بمادلين . ثم أعلن إفلاسه ، ولم يبق لديه من حطام الدنيا إلا حصان وعربة نقل ، وليست له أسرة ولا أبناء ، فاضطر ان يعمل حوذى نقل كى يعيش .

وانكسر فخذا الحصان فلم يستطع النهوض، أما الشيخ فكان محشورا بين العجلات ، وجاءت سقطته بحيث صارت العربة بثقلها كله جاثمة فوق صدره . وكانت العربة محملة بأشياء ثقيلة ، لذا كان الأب فوشــليفان (ومعنــاه « قبض

الريح ») يصرخ ويطلق شهقات مؤلمة للغاية . وحاول الناس إخراجه ولكن ذهبت محاولاتهم أدراج الرياح . وكان اى جهد فوضوى ، واى عون طائش خائب ، واى هزة خاطئة يمكن ان تقضى على الشيخ القضاء الاخير . وكان من المستحيل تخليصه إلا برفع العربة من اسفلها . وكان جافير قد جاء فى لحظة وقوع الحادث ، وبعث فى طلب رافعة معينة يسمونها « العفريتة » .

واقبل المسيو مادلين ، فأفسح له الناس فى احترام . وصرخ فوشليفان :

— أغيثونى ! من الشهم الذى ينقذ شيخا فانيا ؟

والتفت المسيو مادلين إلى الحاضرين وسألهم :

— الديكم عفريتة ؟ (آلة رفع الأثقال) .

فقال فلاح :

— لقد ارسلوا فى طلبها .

— وكم من الوقت يلزم لحضورها ؟

— لقد ذهب الرسل إلى اقرب موضع به ورشة . ولكن لا بد على الأقل من انقضاء ربع ساعة .

فصاح مادلين :

— ربع ساعة ؟

وكان المطر قد انهمر فى الليلة السابقة ، والارض زلقة ، وعربة النقل تغوص فى الأرض كل لحظة وتهصر صدر الشيخ بمزيد من القوة ، فمن الجلى أن اضلاعه ستتحطم قدر انقضاء خمس دقائق . ولذا قال مادلين للفلاحين الذين ينظرون :

ـ مستحيل أن ننتظر ربع ساعة !

ـ هذا ما لا بد منه !

ـ وعندئذ يكون قد فات الأوان ! الا ترون ان العربة تغوص ؟

ـ اللعنة !

فاستطرد مادلين :

ـ اسمعوا ! لم يزل هنـاك تحت العربة مكان يكفى لتسلل رجل كى يرفعها بظهره . نصف دقيقة فقط تكفى عندئذ لجر الرجل المسكين من تحتها . فهل بينكم احد لديه ما يكفى من قوة الحقوين والكليتين والقلب ؟ إنى أقدم لمن يفعل هذا خمسة جنيهات ذهبية !

ولم يتحرك من بين الجمع احد . فقال مادلين :

ـ عشرة جنيهات !

فغض الواقفون ابصارهم ، وغمغم أحدهم :

ـ لا بد أن يكون من يتصدى لهذا خارق القوة . ثم انه سيتعرض للانسحاق !

فقال مادلين :

ـ هيا ! عشرين جنيها !

وساد نفس الصمت . ثم قال أحدهم :

ـ ليست الإرادة الطيبة ما ينقصهم !

فالتفت مادلين ، وعرف فى المتكلم جافير . ولم يكن قد لحه عند قدومه . واردف جافير :



وكان المطر قد انهمر فى الليلة السابقة ، والأرض زلقة ، وعربة النقل تغوص فى الأرض كل لحظة وتهصر صدر الشيخ بمزيد من القوة ..

ــ ما ينقصهم هو القوة . فلا بد ان يكون رجلا ذا قوة رهيبة من يستطيع رفع عربة كهذه فوق ظهره !

ثم ثبت نظره فى المســيو مادلين وواصــل كلامه وهو يضغط على كل كلمة يتفوه بها :

ــ يا مسيو مادلين ، انا لم اعرف قط اللهم إلا رجــلا واحدا يستطيع ان يصنع ما تطلبه الآن .

وارتجف مادلين .

واردف جافير فى عدم مبالاة . ولكن من غير ان يحول عينيه عن مادلين :

ــ إنه احد نزلاء الليمان !

فقال مادلين :

ــ آه !

ــ ليمان طولون .

ــ فاكفهر وجه مادلين . . .

ولكن العربة واصلت غوصها ببطء . والاب فوشليفان يشهق ويصرخ :

ــ إنى اختنق ! اضلاعى تتحطم ! عفريتة ! اى شىء ! آه !

ونظر مادلين حوله وقال :

ــ الا يوجد إذن احد يريد ان يكسب عشرين جنيهــا وينقذ حياة هذا الشيخ المسكين ؟

ولم يتحرك احد من الحاضرين . فقال جافير :

ــ انا لم اعرف إلا رجلا واحــدا يمكن ان يقــوم بعمل العفريتة ! إنه ذلك المحكوم عليه !

وصاح الشيخ :

ــ ها هى تحطمنى !

فرفع مادلين راسه . والتقت عيناه بعينى صقر . هما عينا جافير المثبتتان عليه ، ثم نظر إلى الفلاحين الجامدين فى اماكنهم وابتسم باسى . ثم من غير ان يقول شيئا ركع على ركبتيه ، وقبل ان تخرج صيحة الدهشة من افــواه الجمع المحتشد كان قد دخل تحت العربة .

وانقضت لحظة انتظار ران فيهــا الصــمت . وراوا مادلين يزحف على بطنه تحت هذا الثقل الباهظ ، ويحاول مرتين عبثا تقريب كوعيه من ركبتيه وصاح الناس :

ــ مسيو مادلين ! اخرج من هناك !

وقال له الشيخ فوشليفان نفسه .

ــ اخرج يا مسيو مادلين ! انا مقضى على بالهلاك ، فلا تهلك انت نفسك ايضا !

ولم يجب مادلين . ولهث الحاضرون . وكانت العجلات قد ازدادت غوصا ، فصار مستحيلا على مادلين ان يخرج إن اراد من تحت العربة .

وفجاة رأى الناس الكتلة الهائلة تهتز ، والعربة ترتفع ببطء ، وخرج نصف العجلات من الحفر ، وسمعوا صــوتا مخنوقا يصيح :

— اسرعوا ! ساعدونى !

وكان هذا صوت المسيو مادلين وهو يبذل آخر جهده . فسارعوا ، وقد شحذ تفانى رجل واحد شــجاعة الباقين جميعا . ورفع عشرون ذراعا العربة . وانقذ فوشليفان .

وخرج مسيو مادلين شاحب اللون ، يتصبب عرقا ، وقد تمزقت ثيابه وتلطخت بالوحل . وبكى الجميع ، وقبل الشيخ ركبتيه وهو يلهج بالدعاء له . أما هــو فكانت على محياه أمارات عذاب سعيد وسماوى ، وثبت نظره الهادىء على وجه جافير ، الذى لم يتحول نظره عنه .

الفصل السابع

فوشليفان يصبح بستانيا فى باريس

كان فوشليفان قد رضد ركبته عند سقوطه ، فأمر الأب مادلين بنقله إلى مستوصف كان قد انشأه لعماله فى نفس مبنى مصنعه ، وتشرف على هذا المستوصف راهبتان من أخوات الرحمة . وفى اليوم التالى وجد الشيخ ورقة نقد من ذات الألف فرنك فوق المنضدة بجوار سريره ، ومعها هذه الكلمة بخط الأب مادلين :

— لقد اشتريت منك عربتك وحصانك !

اما العربة فكانت محطمة . وأما الحصان فكان ميتا !

وشفى فوشليفان، ولكن بقيت ركبته ملتوية. واستطاع المسيو مادلين بتزكية من الراهبتين ومن خورى الكنيسة أن يعين الرجل بستانيا فى دير للراهبات بحى سانت أنطوان بباريس .

وبعد فترة وجيزة عين المسيو مادلين عمدة . وعندما رأى جافير لأول مرة المسيو مادلين لابسا الوشاح الذى يخوله السلطة الكاملة على المدينة ، احس تلك الرجفة التى يحسها كلب شم رائحة ذئب تحت ثياب سيده . ومنذ هذه اللحظة صار جافير يتجنبه ما استطاع . وإذا اقتضت واجبات الخدمة وحتمت وجوده مع سيادة العمدة ، كان يخاطبه باحترام عميق جــدا .

وكان هذا الازدهار الذى أضفاه على مدينة « م » الأب مادلين له إلى جانب المظاهر المرئية التى أشرنا إليها ، مظاهر اخرى غير مرئية لم تكن اقل اهمية من الأولى . فعندما يعانى السكان ، وتقل فرص العمل ، وتكسد التجارة ، ويمتنع الممول عن دفع الضريبة بسبب الضنك ويتجاوز المهلة المسموح بها ، تنفق الدولة أموالا كثيرة لإجراءات الحجز والتحصيل بالإكراه . اما عندما يكثر العمل ، ويصير الإقليم فى بحبوحة من العيش والثراء ، تسدد الضرائب بيسر ، ولا تتكلف الدولة إلا القليل . ففى وسعنا ان نقول إن الثراء العام والفقر العام لهما ترمومتر لا يخطىء ، هو مقدار نفقات تحصيل الضرائب . وفى السنوات السبع الأخيرة بمدينة « م » انخفضت نفقات تحصيل الضرائب بمقدار الثلاثة أرباع فى المنطقة كلها ، لذا كانت هذه الدائرة مضرب المثل بين دوائر فرنسا على لسان المسيو فيليل VILLELE الذى كان وزير المالية حينئذ .

وهكذا كان حال الإقليم . عندما عادت إليه فانتين . ولم يكن هناك احد يتذكرها . ومن حسن حظها ان باب مصنع المسيو مادلين كان أشبه بوجه صديق . فتقدمت إلى المصنع وقبلت للعمل فى ورشة النساء . وكانت المهنة جديدة تماما على فانتين ، فلم تتمكن من البراعة فيها ، وبالتالى لم تستطع ان تكسب من يوم العمل شيئا كثيرا . ولكن هذا القليل على كل حال كان كافيا . وحلت بهذا مشكلتها ، وصارت تكسب معاشها .

الفصل الثامن

مدام فكتيرنيان VICTURNIEN

تنفق ثلاثين فرنكا فى سبيل الأخلاق

ولما رات فانتين انها بدات تعيش ، غمرتها لحظة فرح . فأى نعمة من السماء هبطت عليها إذ تعيش بشرف من كد عملها ! وعادت إليها لذة العمل وتذوقه الحقيقى ، فاشترت مرآة ، واستمتعت بالنظر فيها إلى شبابها وإلى شعرها الجميل واسنانها البديعة ، ونسيت أشياء كثيرة ، ولم تعد تفكر إلا فى كوزيت ، وفى المستقبل الممكن ، وكادت تشعر بالسعادة التامة . واستأجرت حجرة صغيرة وأثثتها بالدين اعتمادا على دخلها من عملها مستقبلا ، وهى بقية من عاداتها القديمة الفوضوية .

ولما كانت لا تستطيع ان تقول إنها متزوجة ، لذا حرصت — كما ألمعنا آنفا — على الا تجرى ذكر ابنتها على لسانها .

وفى هذه الفترة الأولى . كما راينا ، كانت تؤدى ما عليها لآل تنردييه بانتظام . ولما كانت لا تعرف من الكتابة إلا التوقيع باسمها ، لذا كانت مضطرة للاستعانة بكاتب عمومى . وكانت تكتب فى أوقات كثيرة ، فلاحظ الناس ذلك عليها ، وبدا التهامس فى ورشة النساء بأن « فانتين تكتب خطابات » وبأنها « تبدو متزينة » .

وليس هناك اشد إصرارا على مراقبة حـركات المرء وسكناته ممن لا ينظر إليهم . لماذا هذا السيد لا يأتى ابدا إلا إلى السمراء ؟ ولماذا لا يعلق هـذا السـيد مفتاحه على المسمار يوم الخميس ؟ ولماذا يسلك دائما فى مساره الشوارع الصغيرة ؟ ولماذا تنزل هذه السيدة دائما من عربتها المكتراة قبل موضع بيتها ؟ ولماذا ترسل فى شراء دفتر ورق الخطابات من محل آخر مع ان محلها مكتظ بهذه الدفاتر ؟ الخ الخ الخ .. فهناك كائنات من البشر مستعدون فى سبيل حل هذه الألغاز — التى لا شأن لهم بها — ان ينفقوا من المال ويبذلوا من الجهد اضعاف ما ينفقونه ويبذلونه فى أعمال الخير . ويفعلون هذا طواعية ، بحثا عن اللذة ، ومن غير أن يكون لفضولهم ثمرة اللهم إلا إشباع الفضول . فهم يتعقبون هذا او هـذه اياما متوالية بطولها ، ويتربصون أو يرصدون الحراس عند اركان الشوارع ، وتحت تجويفات الابواب ، ليلا ، فى البرد وتحت المطر ، ويقدمون الرشاوى للرسل والمندوبين . ويقدمون الخمر للحوذية والخدم والحجاب ، ويشترون ذمة خادمة او وصيفة او بواب . ولماذا هذا كله ؟ للا شىء ! لمجرد شهوة الرؤية وسعار المعرفة والنفاذ من الحجب .. وكثيرا ما يترتب على هتك هذه الأستار وفضح هـذه الأسرار مصـائب ، ومبارزات ، وإفلاس ، وتدمير بيوت وتحطيم كيان . ولكن هذه الكوارث الجسام تملأ جـوانح مكتشـفى تلك الأسرار بالحبور ، مع انه لا مصلحة لهم فى هذا إلا إشباع الغـريزة الخاصة بهم . وانه لأمر يثير الأسى والأسف .

ومن النـاس من فيهم نزوع إلى الشر غير مدفوعين

إلا بالرغبة فى الكلام . فأحاديثهم فى الصالونات ، وثرثرتهم فى حجرات الانتظار ، اشبه بتلك المـداخن التى تسـتهلك الخشب بسرعة ، فلا بد لها من كميات كبيرة من الوقـود . وهذا الوقود ، هو الخوض فى سيرة الناس ، ولو كانوا من الأقربين .

وهكذا راحوا يرقبون فانتين .

وفضـلا عن هذا كان الكثيرات غيورات من شـعرها الأشقر الغزير واسنانها البيضاء .

ورصـدن عن يقين أنها — وهى فى الورشـة بين الأخريات — كثيرا ما كانت تستدير مشيحة عنهن كى تمسح دمعة . وتلك كانت اللحظات التى تفكر فيها فى طفلتها ، ولعلها ايضا كانت تفكر فى الوقت نفسه فى الرجل الذى كانت تحبه .

وإنه لجهد جهيد مضن ان نقطع علائق الماضى المحزنة ..

ورصد زميلاتها ايضا انها كانت تكتب الرسائل مرتين فى الشهر على الأقل، وتوجه رسائلها دائما إلى نفس العنوان، وكانت هى التى تدفع رسوم إرسالها بنفسها فى مكتب البريد. وتمكنت الزميلات البارعات من الحصول على هذا العنوان :

— المسيو تنردييه ، صاحب نزل فى مونفرمى ...

وفى الحانة امكن حمل الكاتب العمومى — بعد ان اطبق عليه السكر — على ان يثرثر ، فهو رجل متقدم فى السن ، محب للشراب ، ولكنه لم يكن يملك ان يملأ جوفه بالنبيذ الأحمر

إلا إذا افرغ ما فى جوفه من أسرار الناس . وقصارى القول أن المهتمين بالأمر عرفوا أن لفانتين طفلة .

وقامت امراة فضولية بالرحلة إلى مونفرمى على نفقتها الخاصة . وهناك تحدثت إلى آل تنردييــه ، وقالت عنــد عودتها :

ــ لقد انفقت خمسة وثلاثين فــرنكا . ولكن قلبى استراح ! فقد رايت الطفلة !

وكانت هذه الفضولية تدعى مدام فكتيرنيان ، وهى حامية حمى الفضيلة فى الدنيا كلها ! وعمرها ست وخمسون سنة ، وتجمع بين قناعين احدهما قناع القبح والدمامة والآخر قناع الشيخوخة . صوتها كصوت الماعز ، وذهنها كذهن التيس فى الانشغال بالنزوات ! وقد تدهش إن علمت ان هذه العجوز كانت شابة فى يوم من الأيام . وفى أوج شبابها ، سنة ١٧٩٣ تزوجت من راهب فر من الدير وانضم إلى اليعقوبيين. وكانت عجفاء ، حادة الملامح والطبع كأنما هى حيوان شوكى، وتكاد تكون ايضا حيوانا ساما ، ثم مات عنها زوجها الراهب الذى سامها العذاب وتركها ارملة . وعند عودة الملكية إلى فرنسا انقلبت من ثورية إلى متعصبة دينية ، وبلغ من مبالغتها فى هذا التعصب ان القسوس اغتفروا لها زواجها من راهب. وكان لها عقار ملأت الدنيا ضجة وطنينا عندما وهبته لمؤسسة دينية . وصارت موضع الرعاية والتكريم فى اسقفية اراس ARRAS . وهذه هى مــدام فكتيرنيان التى ســافرت إلى مونفرى وعادت تعلن على رءوس الأشهاد :

ــ لقد رايت الطفلة بعينى راسى !

وقد استغرق هذا كله وقتا ، فكان قد انقضى عام على عمل فانتين فى المصنع ، عندما سلمتها ذات صباح المشرفة على الورشة خمسين فرنكا من طرف سيادة العمدة وقالت لها إنها لم تعد عاملة فى هذه الورشة ، وطلبت إليها باســم سيادة العمدة أن تبادر بمغادرة الإقليم .

وكان هذا فى نفس الشهر الذى طلب فيه آل تنردييه زيادة الإتاوة إلى خمسة عشر فرنكا ، بعد أن زيدت من قبل بإلحاح منهما إلى اثنى عشر فرنكا .

واسقط فى يد فانتين ، فهى لا تستطيع مغادرة الإقليم ، لانها مدينة بايجار حجرتها وبثمن الأثاث ولم تكف الخمسون فرنكا للوفاء بديونها هذه . وغمغمت بضع كلمات توسل ، ولكن المشرفة قالت لها إن عليها أن تخرج فورا من الورشة . ثم إن فانتين لم تكن إلا عاملة غير بارعة ، فخرجت من الورشة تتعثر فى الخزى والقنوط وعادت إلى حجرتها . لقد عــرف الكافة إذن بأمر خطيئتها !

ولم تجد فى نفسها القدرة على ان تقول كلمة واحدة . ونصحها بعض الناس بالتوجه لمقابلة سيادة العمدة ، ولكنها لم تجسر . فالعمدة أعطاها خمسين فرنكا ، لأنه رجل طيب ، وطردها من العمل لأنه رجل عادل وبار . فأذعنت لهذا القرار.

الفصل التاسع

نجاح مدام فكتيرنيان

لقد افلحت ارملة الراهب إذن فى شىء ما !

ولكن المسيو مادلين لم يكن قد عرف شيئا عن هذا كله. فما حدث كان من نوع ذلك التوافق بين الأحداث التى تمتلىء به الحياة . فقد كان من عادة المسيو مادلين الا يدخل ابدا تقريبا إلى ورشة أو « عنبر » النساء .

وكان قد وضع على رأس هذه الورشة عانســـا كان القس قد اشار عليه بها ، وكانت له ثقة تامة فى هذه المشرفة، وهى شخصية محترمة حقا ، وحازمة ومنصفة ونزيهة تفيض بالرحمة التى تتمثل فى العطاء ، ولكنها لم تؤت ذلك اللون من الرحمة الذى يقوم على الفهـــم وعلى المغفـــرة والصـــفح والسماحة . وكان المسيو مادلين قد فوضها فى كل شىء . وافضل الناس مضطرون لكثرة مشاغلهم ان يفوضوا سواهم فى كثير من الامور ومنحهم سلطتهم . وبموجب هذه السلطة الكاملة ، وعن اقتناع بأنها خيرا صنعت ، قامت هذه المشرفة بالتحقيق فى هذه القضية ، وفصلت فيها بحكمها ، فأدانت فانتين ونفذت فيها العقوبة .

اما الخمسون فرنكا فقد منحتها من مبلغ اودعه لديها المسيو مادلين للصدقات ومساعدة العاملات ، ولم تكن تؤدى عنه حسابا مفصلا .

وعرضت فانتين ان تعمل خادمة فى هذا الإقليم . وتنقلت من بيت إلى آخر تطرق الأبـــواب ، ولكن ما من احـــد كان يريدها . ولم تستطع ان تغادر المدينة ، فهى مدينة لتاجـــر الأثاث القديم المستعمل بثمن ما اشترته منه . ويا له من اثاث! فقد قال لها :

ــ إن غادرت المدينـــة جعلتهم يلقـــون القبض عليك كسارقة !

ومالك البيت الذى كانت مدينة له بالإيجار ، قال لها :

ــ انت شابة وجميلة . وفى وسعك دفع الإيجار !

فقســـمت الخمســـين فرنكا بين المـــالك وتاجر الأثاث المســـتعمل ، وردت إليه ثلاثـــة ارباع أثاثه ، فلم تستبق إلا الضرورى . وها هى بدون عمل ، وبدون وضع مستقر ، وليس فى حوزتها إلا سريرها . وهى مدينة فضلا عن هـــذا بنحو مائة فرنك .

وراحت تحيك اقمصة خشنة للجنود فى حامية المدينة ، وتكسب من هذا اثنى عشر صلديا فى اليوم . وكانت ابنتهـــا تكلفها عشرة . وفى ذلك الحين بدات تقصر فى اداء الإتاوة لآل تنرديية .

ولكن امراة عجوزا كانت تشعل لها شمعتها عندما تعود فى المساء علمتها فن الحياة فى الفاقة والتعاسة . فهناك وراء مرحلة العيش على القليـــل ، مرحلة العيش على لا شىء .

فكأنما المرحلتان حجرتين : الأولى معتمة ، ولكن الأخرى مظلمة كل الإظلام .

وتعلمت فانتين كيف تستغنى تمام الاستغناء عن النار فى الشتاء . وكيف تستغنى عن عصفور غرد فى القفص لأنه يحتاج إلى طعام مهما كان زهيدا . وكيف تجعل من تنورتها غطاء لها ، وكيف تصنع من غطائها تنورة ، وكيف تستبقى شمعتها بأن تتناول طعامها فى ضوء النافذة المواجهة لها . فلا نهاية لما يمكن ان نتعلمه من التدبير من بعض النفوس التى ساخت فى الفاقة والفضيلة ، بحيث تقتصر اكبر نفع ممكن من الصولدى الواحد . وقد تعلمت فانتين هذا الفن من جارتها العجوز ووجدت فى ذلك بعض العزاء والشجاعة .

وقالت فى تلك الفترة لإحدى جاراتها :

ــ عجبا ! انى لأقول لنفسى إنى لا انام إلا خمس ساعات واشغل باقى الوقت كله فى الحياكة ، واكاد احصل من هذا على الخبز . ثم إن المرء عندما يكون حزينا يقل إقباله على الأكل . وهكذا استمد جانبا من غذائى من كسرة خبز ، واستمد الجانب الآخر من أحزانى .

وفيما هى فى هذا الكرب تمنت لو كانت ابنتها معها ، فتكون مصدر سعادة لها بلا حدود . وفكرت فى استقدامها . ولكن كيف هذا ؟ اتأتى بها لتقاسمها العوز . ثم هى مدينة بمتأخرات مستحقة لآل تنردييه ! فكيف تفى بهذا الدين ؟ ثم الرحلة ذهابا وإيابا ! من اين تراها تحصل على نفقاتها ؟



وراحت تحيك اقمصة خشنة للجنود فى حاملة المدينة ، وتكسب من هذا اثنى عشر صولديا فى اليوم ..

وكانت العجوز التى اعطتها ما يمكن ان نسميه دروسا فى الفاقة ، قديسة اسمها مرجريت . متدينة التدين الحقيقى ، فقيرة ولكنها رحيمة بالفقراء ، بل وبالاغنياء ايضا ! وكانت تعرف من القراءة كتابة اسمها بهجاء غير صحيح ، مؤمنة بالله . وهذا كل حظها من العلم ! وكانت تعتقد انه سياتى يوم تسود هذه الفضائل فى عليين . فحياتنا لها غد مامول .

وفى الفترة الاولى من محنتها كانت فانتين تشعر بخزى شديد حتى انها لم تجسر على الخروج . وعندما تكون فى الشارع يخيل إليها ان الناس يلتفتون ليرمقوها من وراء ظهرها ، ويشيرون إليها بأصبعهم . وكان الناس جميعا ينظرون إليها بالفعل وهى مارة بهم ، ولكن ما من احد منهم كان يحييها . وكان هذا الاحتقار الحاد البارد من جانب المارة ينفذ إلى لحمها وإلى روحها ، كأنه جمرة من نار !

وفى المدن الصغيرة تغدو المراة التعسة وكأنها فريسة عارية لسخرية الكافة وفضولهم . وليس الحال هكذا فى باريس ، فهناك على الأقل لا يعرفها احد ، وهذا الغموض كأنه ثوب يسترها ! آه كم تمنت لو ذهبت إلى باريس ! ولكن هذا كان من المستحيلات .

لذا كان عليها أن تعود نفسها على الاحتقار ، كما تعودت الحاجة . وشيئا فشيئا اتخذت قرارها ، وبعد شهرين او ثلاثة نفضت عنها الشعور بالخزى وراحت تخرج كأن شيئا لم يحدث . وصارت تقول لنفسها : هذا لا يهمنى !

وجعلت تروح وتغدو عالية الرأس ، وعلى شفتيها ابتسامة مريرة ، وواتتها الجسارة .

واحيانا كانت مدام فكتيرنيان تراها من نافذتها وهى مارة فتحس أنها نجحت فى وضعها فى مكانها الصحيح ، وتهنىء نفسها . وللأشرار نوع من السعادة أسود اللون !

وانهك الانكباب على العمل فانتين ، وزادت عليها وطأة السعال الجاف ، وكانت تقول احيانا لجارتها مرجريت :

ـــ المسى يدى ، كم هما ساخنتان !

ولكن فى الصباح عندما كانت تمشط شعرها بمشط قديم مكسر الأسنان وتجده ناعما كالحرير ، كانت تمر بها لحظة من السعادة بهذه النعمة !

الفصل العاشر

بقية النجاح

كانت قد طردت من عملها قرب نهاية الشتاء ، وانقضى الصيف . ولكن الشتاء عاد . والنهار فيه قصـــير . ولذا فالعمل اقل . وفى الشتاء لا ضياء ، ولا حرارة ، ولا ظهر ، فالصباح يلامس المساء ، وهناك الفسق والضباب ، والنافذة فيه رمادية ، والرؤية غير واضحة . والسماء كأنها كرة . ياله من فصل فظيع ! فالشتاء يحول ماء السماء إلى حجارة ، كما يحول قلوب البشر إلى حجارة . وأخذ دائنوها يطاردونها .

كانت فانتين تكسب اقل من القليل ، فتضخمت ديونها . وآل تنردييه الذين تأخرت مستحقاتهم يلاحقونها بالرســـائل التى يكربها مضمونها . وذات يوم كتبوا إليها ان صغيرتها كوزيت عارية تماما والبرد شديد ، وأنها بحاجة إلى تنورة من الصوف ، ولا بد للأم من إرسال عشرة فرنكات على الأقل لشرائها . وتلقت هذه الرسالة، وكورتها فى يدها طول النهار ، وفى المساء دخلت محل حلاق عند زاوية الشارع ، وخلعت مشطها ، فتهدل شعرها الأشقر البديع إلى كليتيها ، وصاح الحلاق :

ــ ما اجمله من شعر !

فقالت له :

ــ كم تعطينى ثمنا له ؟

ــ عشرة فرنكات !

ــ قصه اذن !

واشترت تنورة من التريكو بعثت بها إلى آل تنردييه . واستشاط آل تنردييه غضبا ، فقد كانوا يريدون نقودا . واعطوا التنورة إلى ابنتهما الكبرى ابونين ، وظلت القبرة الصغيرة ترتجف من البرد .

وقالت فانتين فى نفسها :

ــ ها هى ابنتى لم تعد مقرورة . لقد كسوتها بشعرى!

وصارت تلبس قلنسوات صغيرة مستديرة تخفى راسها المجزوزة ، وكانت تبدو فيها جميلة رغم كل شىء .

وكانت خواطر معتمة تدور فى قلب فانتين . فقد حز فى نفسها فقدان شعرها الذى كانت تتيه به وتزهو ، وصـــارت تضمر الحقد والمقت لكل من حولها . وكانت تشارك النـــاس جميعا اجلالهم للأب مادلين . ولكن مع احساسها المتكرر بأنه هو الذى طردها ، وانه كان سبب ما هى فيه من شقاء وبلاء ، انتهى بها الأمر إلى كراهيته هو ايضا ، بل كرهته بصـــفة خاصة . وعندما كانت تمر أمام المصنع عندما يكون العمال أمام الباب ، كانت تتظاهر بالضحك والغناء . وقالت عاملة عجوز عندما رأتها تضحك وتغنى على هذه الصورة :

ــ هاكم فتاة ستنتهى إلى شر مآل .

وفعلا اتخذت لها عشيقا ، هو اول من التقت به . وكان رجلا لم تحبه . اتخذته عشيقا على سبيل التحدى ، وقلبها

يغلى بالغضب . كان رجلا بائسا ، موسـيقيا متسـولا ، وصعلوكا ، يضربها ، وفارقها كما التقى بها ، فى تقزز .

كانت تعبد طفلتها .

وكلما انحدرت . كان كل شىء يزداد من حولها قتامة ، ولكن يزداد سطوع نجم ذلك الملك الطاهر الصغير فى أعماق نفسها . وتقول لنفسها :

ـ عندما اغدو ثرية . ستكون ابنتى كوزيت معى .

ثم تضحك . ولم يكن السعال يفارقهـا ، ويتصـبب ظهرها عرقا .

وذات يوم تلقت من آل تنردييه خطابا هذا مضمونه :

ـ كوزيت مريضة . مصابة بمرض منتشر فى الإقليم : حمى عسكرية كما يقولون . ولا بد لها من عقاقير غالية الثمن . وهذا يرهقنا ولم نعد قادرين على دفع ثمنها . فما لم ترسلى إلينا اربعين فرنكا قبل مرور ثمانية أيام ، ماتت الصغيرة !

وما ان طالعت هذه الرسالة حتى قهقهت بالضحك ، وقالت لجارتها العجوز :

ـ آه ! ما اطيب قلبهما ! اربعون فرنكا ! يعنى جنيهين ذهبا ؟ ومن اين يحسبان انى يمكن ان احصل عليهما . ما أغبى هؤلاء الفلاحين !

ومع هذا اتجهت إلى السلم ، وتحت كوة هناك أعادت

قراءة الرسالة . ثم هبطت السلم وخرجت تجرى وتقفز ، وهى تضحك طول الوقت .

وقابلها شخص ، فسألها متعجبا :

ـ ماذا جرى لك حتى بلغ بك الابتهاج هذا المبلغ ؟

فاجابته :

ـ إنها سخافة كتبها إلى أناس من الريف . يطلبون منى اربعين فرنكا . تعسا لهم من فلاحين !

وعند مرورها من الميدان رأت جمعا محتشدا حول عربة غريبة الشكل ، وقد وقف فوقها رجل يخطب الناس فى ثياب حمراء . وكان هذا الرجل حكيم أسنان متجولا ، يعرض على الناس أطقم أسنان كاملة ، وأنواعا من المساحيق والأشربة .

واختلطت فانتين بالجمع الواقف هناك وهى تضحك مثل الآخرين من تلك الخطبة التى حفلت بتعبيرات مبتذلة للسوقة وعبارات سوية للناس المحترمين . ورأى خالع الأسنان هذه الفتاة الجميلة التى تضحك ، فصاح فجاة :

ـ لكاسنان جميلة يا فتاة . ولو بعتنى سنيك الأماميين ، لأعطيتك جنيها ذهبيا مقابل كل واحد منهما .

وصاحت فانتين :

ـ يا للفظاعة !

وزمجرت عجوز درداء (بلا اسنان) كانت واقفة :

ـ جنيهان ذهبيان ! ما اسعد حظها !

ولاذت فانتين بالفرار وسدت أذنيها حتى لا تسمع صوت الرجل الذى صاح بها :

ــ فكرى يا جميلة ! جنيهان ذهبيان ! مبلغ طيب . وإذا طاوعك قلبك وطابت بهذا نفسك تعالى هذا المساء إلى نزل « ظهر السفينة الفضى » تجدينى هناك !

ورجعت فانتين إلى البيت غاضبة اشد الغضب ، وروت الامر لجارتها الطيبة مرجريت ثم قالت :

ــ اتعقلين هذا؟ اليس هذا الرجل شنيعا؟ كيف يتركون رجلا كهذا يطوف الإقليم ؟ يريد ان يخلع لى السنين الأماميين ! ولكنى اصبح عندئذ فظيعة كريهة ! إن الشعر ينبت ثانية ، اما الأسنان ! آه ! يا للرجل الوحش ! إنى لأفضل على هــذا ان القى بنفسى من الطابق الخامس إلى الأرض ، وراسى إلى اسفل ! وقال لى بصفاقة إنه سيكون هذا المساء فى « ظهر المركب الذهبية » .

فسألتها مرجريت :

ــ وكم عرض عليك ؟

ــ جنيهين .

ــ يعنى اربعين فرنكا .

فقالت فانتين :

ــ نعم . يعنى اربعين فرنكا .

وظلت غارقة فى التفكير ، ثم اقبلت على عملها . ولكن بعد ربع ساعة تركت حياكتها وذهبت لتعيد قراءة الخطاب الذى وصلها من آل تنردييه على السلم .

وعندما عادت قالت لمرجريت التى كان تعمل بقربها :

ــ ما هى الحمى العسكرية ؟ أتعرفينها ؟

فقالت الفتاة العجوز :

نعم . انها مرض .

ــ إنه يحتاج إذن إلى عقاقير كثيرة .

ــ أوه . عقاقير هائلة !

ــ ومن اين ياتى للناس هذا المرض ؟

ــ هو مرض يصيب الناس هكذا .

ــ ويصيب الأطفال ايضا ؟

ــ يصيب الاطفال بصفة خاصة .

ــ وهل ينتهى بالموت ؟

فقالت مرجريت :

ــ فى كثير من الأحيان .

وخرجت فانتين إلى السلم لتعيد قراءة الخطاب .

وفى المساء نزلت ، وشوهدت تتجه صــوب شــارع باريس حيث توجد الفنادق .

وفى صباح اليوم التالى ، عندما دخلت مرجريت حجرة فانتين قبل طلوع النهار ــ لأنهما كانتا تعملان دائما معا وبذلك لا تشعلان إلا شمعة واحدة لهما معا ــ فوجدت فانتين جالسة على سريرها شــاحبة مقرورة كالثلج . ولم تكن قد رقدت طول الليل ، وقلنسوتها ملقاة فوق ركبتيها . وكانت الشمعة قد احترقت طول الليل فأوشكت على التلاشى .

ووقفت مرجريت على عتبة البـــاب ، وقد تســمرت فىمكانها امام هذه الفوضى الشاملة وصاحت :

ــ رباه ! لقد احترقت الشـمعة باكملها ! لقد حدثت امور جسام إذن !

ثم نظرت إلى فانتين التى اتجهت إليها براسها الخالى من الشعر .

وكانت فانتين قد شـاخت عشر سنين منـذ الليـلة الماضية . وصاحت مرجريت !

ــ يا إلهى ! ماذا بك يا فانتين ؟

فاجابتها فانتين :

ــ ليس بى شىء . بالعكس ! طفلتى لن تموت من هــذا المرض الفظيع لافتقارها إلى العلاج ! انا راضية ...

وفيما هى تقول ذلك ارت العجوز جنيهين ذهبيين كانا يلمعان فوق المنضدة .

فقالت مرجريت :

ــ رباه ! إنهـا لثروة ! من اين حصـلت على هــذين الجنيهين الذهبيين ؟

فاجابتها فانتين :

ــ حصلت عليهما ...

وابتسمت . وكانت بقية الشمعة تضىء محياها ، فاذا ابتسامة دامية . واللعاب المدمم الأحمر يلطخ ركنى ثغرها . فقد كان فى مقدمة فمها ثقب اسود .

كان السنان منزوعين .

وارسلت الأربعين فرنكا إلى مونفرى .

ولكن كانت تلك مجـرد حيلـة من الاعيب آل تنرديبه للحصول على نقود . فكوزيت لم تكن مريضة .

والقت فانتين بمرآتهـا من النافذة . وكانت قد تركت حجرتها الصغيرة بالطابق الثانى منذ زمن طويـل واقامت فى علبة (سندرة) اسفل السقفالمائل ، حيث يلتقى منحدر السقف بالأرض وترتطم به فى كل لحظة . فالفقير لا يستطيع ان يمضى إلى نهاية حجرته إلا إذا انحنى ، ولم يعـد عندها سرير ، وبقيت لديها خرقة كانت تتخذها غطاء ، وحشـية من القش على الارض كانت ترقد فوقها . ولديها كرسى منزوع القش . وفى الركن اصيص به شجرة ورد منسية جف عودها ، ووعاء به ماء كان يتجمد فى الشتاء ، وكانت مستويات الماء المتفاوتة على جدرانه تتبقى منها دوائر من الجليد. لقد فقدت الخزى ، وها هى فقدت الدلال والفندرة . حتى انها صارت تخـرج بقلنسوة قذرة . ولم تعد ترتق ثيابهـا الداخلية إما لضـيق الوقت او عن عدم مبالاة . وكان حذاءها فى حـالة سـيئة للغاية . وكان الدائنون يتشـاجرون معهـا باسـتمرار ، ولا يتركانها فى هدوء يوما واحدا : كانت تلقاهم فى الشـارع ، او تقابلهم على السـلم . وكم من ليلة قضـتها باكية مؤرقة شاردة . وصارت عيناها شـديدتى اللمعان ، وصـار الم مستمر يخز كتفها ، وهى دائمة السعال . وينصب غضـبها ومقتها كله على الاب مادلين . ولكنها لا تشـكو لأحد . بل

كانت تشتغل بالحياكة سبع عشرة ساعة فى اليوم . ولكن متعهد توريد الملابس للسجون ، وكانت تعمل لحسابه ، لم يلبث ان خفض الأجر ، بحيث هبط اجرها إلى تسعة صلديات فى اليوم . فسبعة صلديات لقاء عمل كادح دائب سبع عشرة ساعة فى اليوم ! وزاد دائنوها قسوة وضراوة . وكان تاجر الأثاث المستعمل الذى استرد معظم اثاثه يقول لها دائما :

— متى تسددين دينك لى يا عاهرة ؟

ماذا يريدون منها إذن ؟ لقد شعرت انها مطاردة ، وصارت تحس انها حيوان تتبعه كلاب الصيد بلا رحمة . فلا عجب تنقلب كائنا شرسا متوحشا .

وحوالى هذا الوقت كتب إليها تنردييه ان صبره طال حتى نفد ، وانه عاملها بكل طيبة ، ولكن لا بد له من الحصول على مائة فرنك فورا ، وإلا طرد الصغيرة المسكينة كوزيت ، وهى لم تزل فى دور النقاهة من مرضها الخطير ، لتتشرد فى البرد القارص فى الشوارع ، معرضة للهلاك جوعا وبردا .

وقالت فانتين فى نفسها :

— مائة فرنك ؟ ولكن كيف السبيل إلى كسب مائة صلدى — لا مائة فرنك ؟

ثم قالت اخيرا :

— فلنبع ما تبقى !

ولم يكن تبقى لها شىء سوى حطام جسدها .

وهكذا غدت المنكودة مومسة عمومية

الفصل الحادى عشر

الرب يخلصنا

وما هى حكاية فانتين هذه ؟ إنها قصة شراء المجتمع لجارية .

وما السبب ؟

إنه الفاقه ! إنه الجوع والبرد والوحشة والهجر . وإنها لصفقة تعسة ! تباع فيها روح بشرية لقاء كسرة خبز . البائع فيها هو الفاقة . والمشترى فيها هو المجتمع !

إن القانون السماوى يحكم حضارتنا اسما ، ولكنه لم ينفذ بعد إلى صميمها . ويقال إن الرق قد اختفى من الحضارة الأوربية . وهذا خطأ ! فالرق لم يزل موجودا . ولكنه لم يعد جاثما إلا على صدر المراة ، واسمه الحديث هو البغاء !

إنه يجثم على صدر المراة ، وينتهك ضعفها . ويفترس رشاقتها وجمالها وامومتها . وليس هذا عارا يسيرا ووصمة هينة للبشرية .

وفى المرحلة التى وصلت إليها احوال فانتين ، لم يكن قد بقى لها من جمالها السابق إلا اقل القليل . وغدت حجارة صماء لا حياة فيها حين تحولت إلى وحل . فكل من لمسها

احس قشعريرة البرد . وعندما تمر امام الناس تتجاهلهم ، فهى صورة للعار والصرامة معا . والحياة والمجتمع قالا لها كلمتهما الأخيرة ، واصابها اسوا ما يمكن ان يصيبها . وقــد تحملت كل شىء ، وتألمت من كل شىء ، ونزلت عن كل شىء ، وفقدت كل شىء ، وبكت كل شىء ، وصارت مستسلمة ذلك الاستسلام الذى يشبه عدم المبالاة مثلما يشبه الموت النعاس. ولم تعد تتحاشى شيئا ، او تخشى شيئا . فلتسقط عليها كل السحب وليجرفها المحيط ! انها كالغريقة فما خوفها من البلل؟

هذا ما اعتقدته . ولكن المرء يخطىء إن ظن انه وصل إلى قاع المحن الذى ليس بعده قاع . فليس يعرف ما يخبئه لنا القدر غدا إلا علام الغيوب . وهو الله وحده .

الفصل الثانى عشر

تبطل المسيو بماتبوا BAMATABOIS

فى جميع المدن الصغيرة ، وفى مدينة «م» على الخصوص فئة من الشبان ينفقون الفا وخمسمائة جنيه إيرادا فى الريف بنفس الأســلوب الذى يلتهم به امثالهم مائتى الف فرنك فى السنة إنهم افراد من نوع خامل طفيلى . يملكون شــيئا من الأرض الزراعيــة ، وفيهم شىء من البـلاهــة ، وشىء من الفكاهة ، بحيث يبدون اجلافا فى اى صالون ، ولكنهم يخالون انفسهم سادته من العلية فى الحانة ، ويتشدقون بالكلام عن مراعيهم ، وعن غاباتهم ، وعن فلاحيهم ، ويصفرون للممثلات فى المسرح ليثبتوا انهم من اهل الذوق الرفيع ، ويتشاجرون مع ضباط الحامية ليثبتوا انهم من رجال الحرب ، ويقبلون على الصيد ، وعلى التدخين ، ويتشممون الطبــاق ، ويلعبون البلياردو ، ويتأملون المسافرين وهم يهبطون من الحافلات ، ويعيشون فى المقهى ، ويتغدون فى النزل ، ويصحبهم كلب ياكل العظام تحت المائدة، وعشيقة تضع الأطباق فوقها ، ويدققون فى إنفاق كل صلدى ، ويغرقون فى اتبــاع موضات الأزياء ، ويعجبون بالمآسى ، ويحتقرون النســاء ، ولا يقومون بأى عمل ، ولا فائدة منهم ، واضرارهم هينة مثلهم .

فلو كان المســيو فليكس توموليس بقى فى الريف ولم ير باريس قط ، لكان واحدا من هؤلاء .

ولو كانوا أثرى مما هم لقيل عنهم إنهم من أهل الاناقة .
ولو كانوا أفقر مما هم لقيل عنهم انهم « تنابلة » . اما هم فهم ببساطة « متبطلون » . ومن بين هؤلاء المتبطلين أفراد مملون ، وملولون ، ومغرقون فى الخيال ، وبعضهم غريبو الاطوار مضحكون .

وفى ذلك الحين كان المتانق من هؤلاء له ياقة كبيرة ، ورباط عنق كبير ، وساعة لها سلسلة ذهبية ، وصدار ملون او اكثر من صدار بعضها فوق بعض ، وبدلة على آخر طراز وحذاء له توكة ، وفى وجهه شارب ، وفى حذائه مهماز ... ومتانق الريف يعنى بأن يكون شاربه ضخما ومهمازه اطول !

وكانت هذه بعينها فترة صراع جمهوريات امريكا الوسطى ضد ملك اسبانيا ، او صراع بوليفار BOLIVAR ضد موريلو MORILLO . فكانت القبعات ذات الطنف الصغير تدل على الملكيين ، اما المتحررون فيلبسون قبعات لها طنف كبير . وكانت قبعات النوع الأول تسمى موريلو ، وقبعات النوع الثانى تسمى بوليفار .

وبعد انقضاء ثمانية او عشرة اشهر على ماروبناه فى الصفحات السابقة ، وفى اوائل شهر يناير سنة ١٨٢٣ ، فى مساء يوم تساقط فيه الثلج ، كان احد هؤلاء المتانقين المتبطلين ،يرتدى «الموريلو» (شعار الملكيين) ومعطفا كبيرا من النوع الذى يكمل فى ليالى الشتاء الذى على آخر طراز — كان هذا الشخص جالسا فى المقهى يضايق مخلوقة تطوف بذلك الشارع فى ثوب للرقص واسع الفتحات وعلى راسها

زينة من الأزهار ، وتقف أمام واجهة مقهى الضباط . وكان هذا المتانق يدخن ، لأن هذه كانت هى الموضة .

ولكما مرت امامه هذه المراة ارسل إليها مع دخان سيجاره كلمة ساخرة يخالها فكهة مرحة ، مثل :

— كم انت قبيحة ! .. لماذا لا تغطين وجهك ؟ — ليست لك اسنان ! الخ الخ ...

وكان هذا السيد يسمى المسيو بماتبوا . وهذه المراة كالشبح تروح وتغدو فوق الثلج ولا ترد عليه ، ولا تنظر إليه ، وراحت تواصل سيرها فى صمت تام فى انتظام دقيق يعيدها كل خمس دقائق إلى مرمى قذائف سخريته ، وكانها جندى محكوم عليه بالجلد . واغتاظ هذا المتبطل الكسول لعدم مبالاتها ، فانتهز فرصة استدارتها وتقدم من خلفها بخطى مختلسة كانه الذئب ، وهو يكتم الضحك ، وانحنى فتناول من الأرض قبضة من الثلج رماها فجاة على ظهرها من فتحة الثوب ، فيما بين الكتفين العاريتين فاطلقت الفتاة صرخة حادة واستدارت إليه ووثبت عليه كالفهد ، وغرست اظافرها فى وجهه وهى تكيل له اقذع الالفاظ والسباب ، وكانت هذه القذائف من الشتائم تندفع محملة برائحة الشراب الرخيص من فمها الذى ينقصه السنان الأماميان . فقد كانت هذه المراة هى فانتين .

وعلى صوت الضجة خرج الضباط يتزاحمون من المقهى . وتجمع المارة ، فتكونت حلقات كبيرة ضاحكة تصفق وتتصايح

حول هذين المخلوقين المتصارعين بعنف بحيث لا تميز فيه المرأة من الرجل . وقد وقعت قبعة الرجل على الأرض ، وراحت المرأة تضربه بيديها ورجليها ، وقد وقعت قلنسوتها فصارت بلا شعر وبلا أسنان . ووجهها مكفهر بثورة الغضب الجائح .

وفجاة خرج من وسط الجمع رجل طويل القامة ، وامسك بالمراة من ثوبها الساتان الملطخ بالوحل ، وقال لها :

ــ اتبعيني !

فرفعت المراة راسها ، وسكت صوتها الغاضب فجأة ، وارتجفت رجفة رعب هائلة . فقد عرفت فى هذا الرجل الطويل جانير .

وانتهز الرجل المتانق الفرصة ونجا بنفسه لائذا بالفرار.



وانحنى فتناول من الأرض قبضة من الثلج رماها فجاة على ظهرها من فتحة الثوب ..

الفصل الثالث عشر

حل بعض مسائل الشرطة المحلية

ابعد جافير الحاضرين ، وحطم الحلقة ، ثم سار بخطى واسعة إلى مكتب الشرطة القائم فى نهاية الميدان ، وهو يجر وراءه البائسة . وانقادت له بصورة آلية . فلا هى ولا هو نطقا بأى كلمة . وتبعهما حشد من الناس وهم يتفكهون بمزاح ثقيل ، فقمة التعاسة مناسبة لدى الغوغاء للكلام النابى .

ولما وصل جافير إلى مكتب الشرطة — وهو عبارة عن قائمة منخفضة السقف جيدة التدفئة ، ويحرسها شرطى — فتح الباب الزجاجى المحصن بالقضبان والمفضى إلى الشارع، ودخل مع فانتين واغلق الباب وراءه ، فخاب امل الفضوليين الذين صاروا يشبون على اطراف الأصــابع لينظــروا من الزجاج ، لعلهم يرون شيئا مما يدور بالداخل . والفضــول نوع من النهم . والرؤية نوع من الالتهام .

ما إن دخلت فانتين حتى القت بنفسها فى ركن وجمدت وخرس لسانها ، مقعية كأنها كلبة خائفة .

وجاء جندى من الحرس بشــمعة مشتعلة فوضــعها على منضدة . وجلس جافير واخرج من جيبه ورقة مدموغة وشرع يكتب .

وهذه الفئة من النساء تضـــعها قوانينـــا تحت رحمة

الشرطـــة بالكلية ، بحيث تستطيع الشرطـــة أن تصنع بهن ما تشاء ، وتصادر على هواها مهنتهن وحريتهن فى آن واحد .

وكان جافير صارما ، ووجهه جادا ولا ينم على اى انفعال . ولكنه كان شديد الانشغال فى الوقت نفسه ، فهو فى لحظة من اللحظات التى يمارس فيها بكل ذمة وتدقيق صــارم سلطته الأمنية الرهيبة . إنها لحظة يحس فيها كرسيه وكأنه منصة القضاء . فهو يحكم . يصدر الحكم ويأمر بتنفيذه . ولذا فقد راح يستجمع كل ما فى ذهنه من أفكار حــول المهمة العظيمة التى يقوم بها الآن . وكلما تمعن فى حالة هذه الفتاة ، شعر باتقاد ثورته واستنكاره . فما من شــك عنــده فى انه رأى بعينى رأسه جريمة ترتكب . رأى ، هنــاك فى الشــارع ، المجتمع ممثلا فى صاحب أملاك وناخب تهينه وتهاجمه مخلوقة من الحثالة . رأى مومسة بغيا تعتدى على بورجوازى . لقد رأى هذا بعينيه . وراح جافير يكتب فى صمت .

ولما انتهى من الكتابة وقع التقرير بامضائه ، وطــوى الورقة وقال لرقيب المحضر وهو يسلمها له :

— خذ ثلاثة رجال معك واذهب بهذه الفتاة إلى الحبس.

ثم التفت إلى فانتين وقال :

— ستبقين فى الحبس ستة أشهر !

فارتجفت المسكينة التعسة وصاحت :

— ستة أشهر ! ستة أشهر فى السجن ! ســتة أشهر أتقاضى فيها سبعة صلديات فى اليوم! لكن ماذا سيكون من أمر

كزيت ! ابنتى ! ابنتى ! ولكنى لم ازل مدينة لآل تنرديبه باكثر
من مائة فرنك يا سيدى المفتش . اتعرف هذا ؟

وراحت تزحف فـوق بـلاط الأرض الذى بللته احذية
الرجال الموحلة من غير ان تنهض ، وقد ضمت يديها ، وركعت
على ركبتيها . وانشأت تقول :

— يا مسيو جافير ! إنى اسـألك الصفح ! واؤكد لك
انى لم ارتكب خطأ . ولو انك رايت المسالة من البداية لتبين
لك هـذا . اقسم لك بالله العظيم اننى لست المخطئـة . بل
هذا السيد البورجوازى الذى لا اعرفه هو الذى وضع الثلج
فى ظهرى وانا مارة هكذا بهدوء فى الشارع من غير ان اتعرض
بالأذى لأحد ! لقد اثارنى هذا . فانا مريضة بعض الشىء . وقد
فعل هذا بعد ان ظل فترة يلاحقنى بمضايقته وكلماته النابية .
قال لى انت قبيحة الشكل . وانت بلا اسنان . وانا اعـرف
جيدا اننى صرت بلا اسنان . ولكنى لم ارد عليـه . قلت
فى نفسى هـذا سيد يتلهى . كنت امينة معـه . لم اكلمـه
وفى هذه اللحظة وضع الثلج فى ظهرى . يا مسـيو جافير .
يا سيادة المفتش ! الا يوجد احد هنا ممن شاهدوا هذا الذى
حدث ليقول لك إن ما اقوله هو الحقيقة ؟ لعلى اخطات لانى
غضبت . والمرء كما تعلم فى لحظة المفاجاة لا يتمالك نفسه .
ويثور . ثم هو قد وضع هذا الثلج البارد فى ظهرى على حين
غرة . اجل انا مخطئة لانى اتلفت قبعـة هذا السيد . ولكن
لمـاذا انصرف ؟ كنت خليقة ان اقدم إليه الاعتذار . آه ياربى
لم يكن يهمنى ان اعتذر له . سامحنى هـذه المرة يا مسيو

جافير . انت تعلم ان السجين لا يتقاضى إلا سبعة صلديات
فى اليوم . ولست اقول إن هذا خطأ من الحكومة ، ولكن تصور
اننى مدينة بمائة فرنك وإلا طردوا ابنتى . ارسلوها إلى هنا
آه ياربى ! انا لا اريدها معى . إن ما افعله سيىء جدا . آه
يا حبيبتى كوزيت . يا ملاكى يا هبة العذراء المقدسة . ماذا
يكون مصيرها هنا بين الذئاب ! سأقول لك ! إن آل تنرديبه
من الفلاحين الذين لا عقـل لهم ولا يعرفـون الرحمـة ! كل
ما يريدونه هو النقود ! فلا تلقنى فى السجن ! فمعنى هذا إلقاء
طفلة صغيرة فى الشارع . فى قلب الشتاء ! شيئا من الرحمة
بهذه الصغيرة يا مسيو جافير الطيب ! فلو كانت اكبر سـنا
لأمكنها ان تكسب عيشها ، ولكنها صغيرة لا تستطيع شيئا فى
هـذه السن . وانا لست امراة شريرة فى اعماقى . وليس
الطمع ولا الخساسة هما الذى جعلانى هكذا . وقد شربت
الخمر ، ولكن بسبب تعاستى . ولست احب الخمر ، ولكنها
تسكر وتلهى ، عندما كنت اسعد حالا كان الناظر فى صوان
ملابسى يدرك اننى امراة فاضلة وحسنة الترتيب ، وكانت
عندى ملابس داخلية كثيرة . ارحمنى يا مسيو جافير !

كانت تتكلم هكذا وهى منحنية نصفين ، تهزها الشهقات
والنشيج ، وتعميها الدموع ، عارية النحر ، تعض يديها ،
وتسعل سعالا جافا فقيرا . والالم الكبير يغير ملامح البؤساء.
ولذا تحولت فانتين فى هذه اللحظة إلى امراة جميلة . وبين
لحظة واخرى كانت تتوقف عن الكلام وتلثم ردنجوت مفتش
الشرطة . وكان هـذا خليقا ان يعطف عليهـا قلبـا من
الجرانيت . ولكن لا سبيل إلى إلانة قلب من الخشب !

وقال جافير :

— هيا! لقد سمعت ما قلت . فهل فرغت من كل اقوالك؟ سيرى الآن ، فلا بد لك من قضاء الشهور الستة فى السجن! والاب السماوى الأبدى نفسه لن يستطيع لك شيئا !

وعند سماع هذه العبارة الرهيبة :

— الأب السماوى الأبدى نفسه لن يستطيع لك شيئا !

ادركت ان الحكم قد صدر ، فانهارت متهالكة وصاحت:

— الرحمة !

وادار جافير ظهره ، وامسك الجنود بذراعيها .

ومنذ بضع دقائق كان رجل قد دخل من غير ان يلقى احد إليه باله ، واقفل الباب، ووقف وظهره إليه ، وسمع تضرعات فانتين القانطة .

وفى اللحظة التى وضع فيها الجنود ايديهم على المسكينة التعسة التى لا تريد ان تنهض ، تقدم خطوة ، فخرج من نطاق الظل إلى نطاق ضوء الشمعة وقال :

— لحظة من فضلكم !

فرفع جافير عينيه وعرف المســـيو مادلين ، فخلع قبعته احتراما ، وحياه فى ارتباك مشوب بالغضب ، وهو يقول :

— معذرة يا سيدى العمدة !

وكان لهذه الكلمة « سيدى العمدة » على فانتين تأثير غريب . فانتصبت واقفة على الفور دفعة واحدة كأنها شبح خرج من جوف الأرض ، ودفعت الجنود بذراعيهـا واتجهت مباشرة إلى المسيو مادلين ، قبـل أن يتسع أمامهم الوقت لمنعها ، ونظرت إليه محدقة فى وجهه بذهول وصاحت :

— آه ! انت إذن سيادة العمدة !

ثم انفجرت ضاحكة ، وبصقت فى وجهه !

فمسح مسيو مادلين البصقة وقال :

— المفتش جافير ! اطلق سراح هذه المراة !

فكاد يجن جنون المسيو جافير. واجتمعت عليه فى هذه اللحظة اعنف الانفعالات المتناقضة التى عرفها فى حياته . فقد راى فتاة عمومية ، عاهرة محترفة ، تبصق فى وجه عمـدة ، وهذا فى حد ذاته عمل يعد مجرد التفكير فيه بمثابة التجديف على رب العالمين ! وفى الوقت نفسه كان يقارن ويقارب بين هذه الفتاة وما يمكن أن تكون حقيقة هذا العمدة الخفية . وعندئذ راى فى ذلك العمل الفظيع من جانب الفتاة نوعا من البساطة الطبيعية . ولكنه عندما راى هـذا العمدة — رجل الدولة — يمسح وجهه بهدوء ويقول :

— اطلق سراح هذه المراة !

اعتراه ذهول شديد ، فتوقف عقله عن التفكير ، وتوقف لسانه عن الكلام . وكانت حصيلة دهشته تفوق كل حد ، فظل صامتا .

ولم تكن هـذه العبارة اقل ادهاشـا لفانتين ، فرفعت ذراعها العارى، واتكأت على حافة المدفاة كمن تخشى السقوط على الارض ، وراحت تنظر فيما حولهـا ، ثم شرعت تتكلم بصوت خفيض ، كأنما تحدث نفسها :

ــ يطلق سراحى ؟ يتركنى أذهب اين اشاء ؟ لا أقضى فى السجن ستة أشهر؟ ومن الذى قال هذا؟ مستحيل ان يكون هذا قيل فعلا ! لقد اخطأت السمع ! فلا يمكن أن يكون المتكلم هـذا العمدة الوحش ! اهو انت الذى تكلم يا مسـيو جافير الطيب ؟ انت الذى قلت اطلقوا سراحها ؟ ارايت ؟ سأقول لك كل شىء وستتركنى امضى لحال سبيلى . إن هذا العمدة الوحش . هذا الوغد المسن الذى جعلوه عمدة ، هو السبب فى كل شىء حدث لى . تصور يا مسيو جافير أنه طردنى من عملى ! وبسبب حفنة من الخسيسـات ينشرن الاراجيف فى الورشة . اليس هذا فظيعا ؟ يطرد فتاة مسكينة تقوم بعملها فى امانة وشرف ! ولم استطع بعد ذلك أن أكسب من العمل ما فيه الكفاية ، وبدا الشـقاء كله ، وهنـاك شىء يجب ان تصنعه الشرطـة اولا . هنـاك تحسين يجب تحقيقه فى السجون . فالمتعهدون خفضوا الاجر اليوم لحياكة القمصان من ١٢ صلديا إلى تسعة صلديات . وبذلك لا تجـد العاملة ما يكفى للقوت الضرورى. وعندئذ تصنع ما تستطيع لتعيش. وانا عنـدى طفلتى كوزيت ، فكان لابد ان اتحـول إلى امراة ساقطة . افهمت الآن يا مسيو جافير ان هـذا العمدة النذل هو سبب المصيبة كلها التى حلت بى واوصلتنى إلى هـذه الحالة . وبعد ذلك اتلفت قبعة ذلك السيد البورجوازى امام

مقهى الضباط . ولكنه بدا فأفسد لى ثوبى كله بالثلج . ومثيلاتى لا يملكن إلا ثوبا حريريا واحدا للمساء . فها انت ترى يا مسيو جافير انى لم اصنع الشر عمدا . وانا حولى نساء اسوا منى يعشن سعيدات . اوه يا مسيو جافير ! الانت الذى قلت لهم يطلقوا سراحى ! اليس كذلك ! قم بتحرياتك ، واسال صاحب بيتى ، يقل لك إنى اقوم بدفع الايجار فى موعده الآن . سيقول لك الجميع إنى امينة فى معاملاتى ! اسالك الصفح يا مسيو جافير فقد اتكأت على مفتاح المدفاة فبدا دخانها يتصاعد .

وكان المسيو مادلين يصغى لها بكل انتباه . وبينما هى تتكلم فتش فى جيب صداره . وأخرج كيسه وفتحه ، ولكنه وجده خاويا ، فأعاده إلى مكانه وقال لفانتين :

ــ بكم قلت انك مدينة ؟ كم يبلغ دينك ؟

فالتفتت إليه فانتين ، التى كانت متجهة إلى جافير دون سواه وصاحت به :

ــ وجهت إليك انت الكلام ؟

ثم التفتت إلى الجنود وسألتهم :

ــ ارايتم كيف بصقت على وجهه ؟ يا للعمدة الوغـد ! لقد اتيت إلى هنـا كى تخيفنى ولكنى لا اخافك . بل اخـاف مسيو جافير . اخاف مسيو جافير الطيب وحده !

والتفتت نحو المفتش قائلة :

ــ ها انت ترى يا سـيادة المفـتش . ويجب ان تكون منصفا . وانا اعرف انك منصف . وهذا امر بسيط فى الواقع .

سيد يضع الثلج فى ظهر امراة ، هذا شىء يضحك الضباط ، وهذا طبيعى ، فمثيلاتى مهمتهن تسلية السادة ! ثم اتيت أنت، وعليك مسئولية حفظ النظـــام ، وتقتاد المراة إلى المخفر ، ولكن بعد التفكير ، وبما انك رجل طيب ، امرتهم ان يطلقوا سراحى ، من اجل خاطر ابنتى الصغيرة . لان شهور السجن الستة ستمنعنى من إطعام طفلتى ! ولكن إياك والعودة لهذا يا فاجرة ! اقسم لك انى لن أعود لذلك يا مسـيو جافير ! وليصنعوا منذ الآن ما شاءوا ، فلن ابالى ولن اتململ! اما اليوم فقد صرخت لان ذلك كان مؤلما . ولم اكن اتوقع ابدا ان يضع هذا السيد الثلج فى ظهرى . ثم إن صـــحتى معتلة وينتابنى السعال . واحس كأن فوق معدتى كرة محـــرقة ، وقال لى الطبيب إنى بحاجة إلى علاج . هات يدك تحسس معدتى . هيا ! لا تخف إن الالم ها هنا .

لم تكن تبكى ، بل كان صوتها ملاطفا ، وضغطت على نحرها الأبيض الرقيق يـد جافير الكبيرة الخشـــنة ، وهى تنظر إليه باسمة .

وفجاة سوت اضطراب ثيابها وأنزلت ثنايا ذيلها التى ارتفعت وهى تزحف إلى مستوى ركبتيها ، وسارت نحـــو الباب وهى تقول للجنود بهزة ودية من راسها :

ــ لقد امر السيد المفتش باطلاقى ، وها انا اذهب .

ووضعت يدها على الأكرة . وبعد خطوة واحدة تصير فى الشارع .

وكان جافير حتى تلك اللحظة قد ظل واقفـــا ، جامد الأوصال ، مطرقا إلى الأرض ، كأنه تمثال فى غير موضـــعه ينتظر ان ينقلوه إلى مكانه الصحيح . ولكن صـــوت تحريك الأكرة ايقظه من شروده ، فرفع راسه فى ضراوة الســـلطة الوحشية التى يتميز بها ذوو السلطان من السفلة وصاح :

ــ ايها الرقيب ! (الجاويش) الا ترى هذه المراة تهم بالخروج ؟ من الذى قال لك اطلقها ؟

فقال مادلين :

ــ انا !

وكانت فانتين عند سماع صوت جافير قـــد ارتجفت وتركت الأكرة كما يترك السارق الشىء المسروق. ولما سمعت صوت مادلين التفتت ، ومن غير ان تقـــول كلمة واحدة راح بصرها يتنقل من جافير إلى مادلين ومن مادلين إلى جافير ، كلما تكلم احد منهما .

ولابد ان جافير طاش صوابه ، حتى وجه إلى الرقيب هذا الزجر ، بعد ان طلب العمدة إطلاق سراح فانتين . فهل وصل به الحال إلى إغفال وجود سيادة العمدة ؟ اوصـــل به الحال إلى اعتقاد انه ما من سلطة يمكن أن تصدر هذا الأمر ، او ان سيادة العمدة قال غير ما كان يريد ان يقول ؟ ام انه بازاء ما رآه من انقلاب الأوضاع خال أن وضعه ايضا انقلب فصار هو الأكبر والعمدة هو المرءوس ؟ وان المجتمع والدولة والقانون صارت مجسدة فى شخص جافير ؟

ومهما يكن من شيء، فقد قال المسيو مادلين كلمة « انا » وإذا بمفتش الشرطة جافير يلتفت نحو سيادة العمدة شاحبا باردا ، وقد ازرقت شفتاه وشردت نظراته ، وقال له خافض البصر ، ولكن ثابت الصوت بحزم :

ــ يا سيادة العمدة . هذا غير ممكن !

فقال مادلين :

ــ وكيف هذا ؟

ــ هذه التعسة اهانت بورجوازيا !

فقال مادلين بهدوء ومسالمة :

ــ أيها المفتش جافير ! اسمع ! انت رجل شريف ، وانا لا امانع فى التفاهم معك . وإليك الحقيقة . لقد كنت مارا بالميدان وانت تقتاد هذه المرأة ، وكانت هناك بقايا من حشود الناس ، فاستفسرت منهم وعرفت كل شيء . البرجوازى هو الذى اخطأ ، وكان يجب على الشرطة ان تقوم بواجبها فتقبض عليه .

فقال جافير :

ــ هذه البائسة أهانت سيادة العمدة .

فقال مسيو مادلين :

ــ هذا امر يخصنى . والإهانة وجهت إلى ، وانا حر التصرف فيها .

ــ عفوا يا سيدى العمدة . الإهانة لم تلحق بشخصك. بل بالعدالة !

ــ ايها المفتش جافير . إن اول عدل هو الضمير . وقد سمعت هذه المرأة . وانا اعرف ماذا اصنع.

ــ وانا يا سيدى العمدة لا افقه ما ارى . . .

ــ إذن عليك ان تقتنع بالطاعة !

ــ انا اطيع واجبى . وواجبى يقضى بأن تقضى هذه المرأة ستة اشهر فى السجن !

فاجابه المسيو مادلين بدماثة :

ــ اسمع جيدا ما اقوله لك . انها لن تسجن يوما واحدا !

وعندئذ تجاسر جافير على التحديق فى وجه العمدة ، وقال له بصوته الذى يفيض بالاحترام :

ــ انا آسف لمقاومة سيادة العمدة ، فهذه اول مرة فى حياتى اقدم فيها على ذلك . ولكن اسمح لى أن اقول لك انى اتصرف فى دائرة اختصاصى . وما دام سيادة العمدة يريد التنازل عن حقه ، فانا اتمسك بما حدث من اعتداء على البورجوازى . فقد كنت هناك . ورايت هذه الفتاة تهجم على المسيو بماتبوا وهو ناخب وصاحب لملاك ، ويملك ذلك البيت الجميل ذا الشرفة المكون من ثلاث طوابق من الحجر المنحوت ! وفى الدنيا امور يجب مراعاتها . ومهما يكن من شيء يا سيادة العمدة فهذا حادث من اختصاص شرطة الطريق ، وهذا هو اختصاصى ، ولذا فسوف أستبقى المرأة فانتين .

وعندئذ عقد المسيو مادلين ذراعيه وقال بصوت صارم لم يسمعه منه احد فى المدينة كلها من قبل :

ـ الحادث الذى رويته من اختصاص شرطة البلدية ، وبمقتضى نص المواد ٩ و ١١ و ١٥ و ٧٠ من القانون الجنائى انا القاضى الطبيعى فى هــذه الحوادث . وانا آمر ان يطلق سراح هذه المراة .

وحاول جافير ان يبذل جهدا اخيرا ، وقال :

ـ ولكن يا سيادة العمدة ..

ـ واذكرك فى الوقت نفسه بالمــادة ٨١ من القــانون الصادر فى ١٣ ديسمبر سنة ١٧٩٩ بشأن الحجز التعسفى !

ـ اسمح لى يا سيدى العمدة ان ..

ـ ولا كلمة واحدة !

ـ ومع هذا ...

فقال مادلين :

ـ اخرج !

وتلقى جافير الضربة واقفا ، كاللطمة على وجهه ، وحيا منحنيا إلى الارض سيادة العمدة وخرج على الفور !

وكانت فانتين بجوار الباب ، وراته يمر امامها فى ذهول. ولكنها فى الوقت نفسه كانت فى حالة اضطراب لا مزيد عليه . فقد شهدت وسمعت مشاحنة بين سـلطتين متعارضــتين ،

ورات بعينيها رجلين بيدهما حريتها وحياتها وروحها وطفلتها ، واحد هذين الرجلين يشدها ليدسها فى الظلام ، والآخر يدفع بها إلى النور . فبدا لها هذان الرجلان كأنهما عمـلاقان ، احدهما يتكلم كالشيطان ، والآخـر يتكلم كانه ملك كريم . وها هو الملك هزم الشيطان . ولكن هزها من راسها إلى قدمها ان هذا الملك الكريم هو نفســه الرجل الذى كانت تمقته ، وهو هذا العمدة الذى قضت امدا طويلا وهى تحسبه سبب كل ويلاتها . ولكن فى نفس اللحظة التى اهانته فيها إهانة فظيعة ناضل لإنقاذها ! اتراها كانت مخطئة ؟ وراحت ترتجف. كانت تصغى زائغة البصر ، وتنظر مذعورة ، ومع كل كلمة تفوه بها المسيو مادلين كانت تشعر أن اعماقها تنصهر وتتبدد منها ظلمات الحقد ويتولد فى قلبها عرفان لا حد له ، وفرح ، وثقة ، ومحبة .

ولما خرج جافير ، التفت نحوها المسيو مادلين وقال لها بصوت متمهل ، وهو يغالب نفسه كى يتكلم بجد من غير أن يبكى :

ـ لقد سمعتك . ولم اكن اعرف شيئا من كل ما ذكرت. ولكنى اشعر انك صادقة . لماذا لم تلجئى إلى؟ ولكن ما علينا: سادفع كل ديونك . وساستقدم طفلتك او تذهبين انت لتلحقى بها . وساتكفل بك وبابنتك . وتعيشين هنا او بباريس او حيث شئت . ولن تعملى بعد اليــوم إن أردت هــذا . لانى ساعطيك كل ما يلزمكما من نقود. وستعودين كما كنت شريفة سعيدة . وإذا كان ما قلت صحيحا فانا اعلن انك كنت دائما شريفة بالقلب والنية امام الله . يا لك من مسكينة !

وكان هذا أقوى من احتمال فانتين ! تسترد كوزيت ؟ تترك حياة العار ؟ تعيش حرة غنية سعيدة شريفة مع كوزيت؟ تعيش فجأة فى فردوس ارضى ! وراحت تنظر كالمذهولة إلى هذا الرجل الذى يتكلم ، ولم يسعها إلا ان تنخرط فى البكاء . وركعت أمام المسيو مادلين ، وقبل ان يتمكن من منعها كانت قد تناولت يده وطبعت شفتيها فوقها ..

ثم غشى عليها ...

الكتاب السادس

جـــــافير

الفصل الأول

بداية الراحة

نقل المسيو مادلين فانتين إلى ذلك المستوصف الذى اقامه فى بيته . وعهد بها إلى الراهبات اللواتى ارقدنها فى الفراش . وعانت من حمى شديدة ، وقضت جانبا من الليل تهذى وتتكلم بصوت مرتفع ، ولكنها نامت فى النهاية .

وفى اليوم التالى ، حوالى الظهر ، استيقظت فانتين ، وسمعت تنفسا قريبا جدا من فراشها . فأزاحت ستار الفراش ورات المسيو مادلين واقفا ينظر إلى شىء ما فوق راسها ، وكانت هذه النظرة تفيض بالشفقة والقلق والتوسل . فتعقبت نظرته فراتها موجهة إلى صليب مسمر فى الجدار .

وكانت صورة المسيو مادلين قد انقلبت فى عينى فانتين ، فصار يبدو لها فى هالة من نور . وهو فى هذه اللحظة مستغرق فى الصلاة والدعاء . فنظرت إليه طويلا من غير ان تجسر على مقاطعته ، واخيرا قالت له على استحياء :

ــ ما هذا الذى تصنعه ؟

وكان المسيو مادلين قد قضى فى مكانه هذا زهاء ساعة ، فى انتظار يقظة فانتين، فتناول يدها ، وجس نبضها واجابها :

ــ كيف حالك الآن ؟

فقالت :

ــ بخير . لقد نمت . واعتقد انى تحسنت .

وعندئذ اجابها عن سؤالها الأول ، كأنه لم يسمعه إلا الآن :

ــ كنت اصلى لهذا الشهيد العلوى ...

واكمل فى نفسه عبارته قائلا :

ــ لأجل هذه الشهيدة التى على الأرض !

ذلك ان المسيو مادلين قد قضى الليل وهذا الصباح فى الاستخبار ، وصار الآن يعرف كل شىء . عرف قصة فانتين بكل تفصيلاتها الأليمة ، واستطرد :

ــ لقد قاسيت كثيرا ايتها الأم المسكينة ! لا تبتئسى ، فلديك الآن بائنة مختارى الرب . فعن هذا الطريق يتحول البشر إلى ملائكة . فالذنب ليس ذنبهم ، لأنه ليس امامهم طريق آخر . واعلمى ان هذا الجحيم الذى خرجت منه الآن هو اول صور السماء . وكان لابد من البدء به !

وتنهد بعمق ، وابتسمت له تلك الابتسامة البديعة التى ينقصهان سنان .

وكان جافير فى نفس تلك الليلة قد حرر خطابا ، وتولى إيداعه بنفسه فى الصباح مكتب بريد « م » ، وهو رسالة موجهة إلى باريس ، باسم « المسيو شابوييه ، سكرتير سعادة مدير الشرطة » . ولما كان حادث مخفر الشرطة فى اليوم السابق قد ذاع ، وعرفت مديرة مكتب البريد ومن معها خط المسيو جافير ، فادركوا انها رسالة استقالته من منصبه .

واسرع المسيو مادلين بالكتابة إلى آل تنردييه ، وبدلا من المائة فرنك المدينة بها فانتين لهما ، ارسل المسيو مادلين ثلاثمائة فرنك ، وطلب إليهما إرسال الطفلة على وجه السرعة إلى « م » حيث ترقد أمها مريضة وتريدها معها . فأدهش ذلك آل تنردييه ، وقال الرجل لامرأته :

ــ بحق الشيطان ! لن تفلت الطفلة . فقد غدت بقرة حلوبا ، ولا بد أن ثريا مغفلا عشق الأم !

ورد على الرسالة بفواتير مجموعها اكثر من خمسمائة فرنك، من طبيب ومن صيدلى ، كانا فى الحقيقة قد تقاضيا هذه المبالغ لقاء علاج ابنتى تنردييه من مرض طويل . اما كوزيت فلم تعان اى مرض . وكل ما هناك انه ابـدل الاســماء فى الفواتير . وكتب تنردييه تحت هذه المذكرة عبارة :

ــ وصلنى تحت هذا الحساب ثلاثمائة فرنك . . .

فأرسل المسيو مادلين ثلاثمائة فرنك أخرى وكتب يطلب الإسراع باحضار كوزيت . فقال تنردييه :

ــ وحق المسيح لن تفلت هذه الطفلة !

ولم تشف فانتين ، وظلت نزيلة المستوصف . ولم تكن الراهبات فى البداية قد قبلنها واقبلن على علاجها والعناية بها إلا بامتعاض شديد . وكل من راى لوحات كتدرائية ريمس REIMS يذكـر انتفـاخ الشـفاه السـفلى للعـذارى الحكيمات وهن ينظرن إلى العذارى الطائشات . وهــذه الزراية من اقوى غرائز الكرامة النسوية . وقد شعرت به

الراهبات مضــاعفا بتأثير تدينهن . ولكن فــانتين تمكنت من التغلب على نفورهن فى بضعة ايام ، فقد كان كلامها دائمـا يدل على العذوبة والتواضــع والاحتشــام ، والأم التى فى اعماقها الانت قلوبهن . وقد سمعنها ذات يوم تقول وهى محمومة :

ــ لقد كنت خاطئة ، ولكن عندما تصير طفلتى بقربى فتلك علامة على أن الله غفر لى . وعندما كنت غارقة فى الشر لم اشأ ان تكون كوزيت معى، فلم اكن لأتحمل نظراتها الطافحة بالدهشة والحزن . ولكن من اجلها هى صنعت الشر ، وهذا ما يجعل الله يغفر لى . وسأشعر ببركة الرب عندما تكون كوزيت هنا . سأنظر إليها، ويشفينى ان ارى كل هذهالبراءة . فهى لا تعرف شيئا . إنها ملاك . ملاك لم تسقط اجنحته بعد !

وكان المسيو مادلين يذهب ليراها كل يوم مرتين ، وفى كل مرة كانت تسأله :

ــ هل سأرى كوزيت قريبا ؟

ويجيبها :

ــ ربما كان هذا غدا صــباحا . ســتصل بين لحظة واخرى . انا فى انتظارها .

فيشرق وجه الأم الشاحب وتقول :

ــ أوه ! كم سأكون سعيدة .

وقد قلنا منذ قليل إنها لم تكن تتقدم نحو الشفاء . بل على العكس كانت حالتها تسوء من اسبوع إلى آخر . فتلك

القبضة من الثلج التى دست بين لوحى الكتفين سببت لها تفجر مرض كان كامنا فيها منذ عدة سنين . وكانت قد بدات فى تلك الفترة دراسة أمراض الصدر ، وفحصها الطبيب وهز راسه ، وسأله المسيو مادلين عما تراءى له ، فقال الطبيب :

— اليست لها طفلة ترغب فى رؤيتها ؟

— بلى .

— اسرعوا إذن بإحضارها .

فارتجف مسيو مادلين. وسألته فانتين عما قاله الطبيب، فتكلف الابتسام وقال :

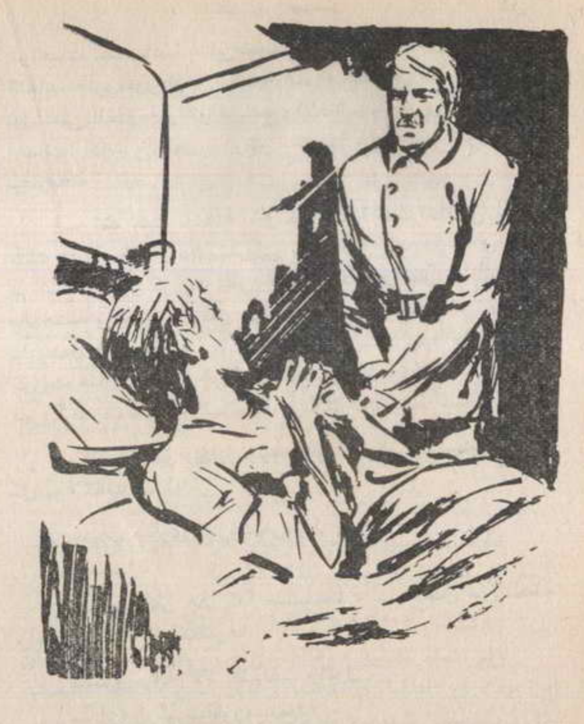
— طلب سرعة حضور طفلتك ، وقال إن ذلك سيعيد إليك صحتك ..

فقالت :

— اوه ! كم هو على حق ! ولكن ماذا جرى لآل تنردييه حتى يحتجزوا ابنتى هكذا ؟ ولكنها ستحضر . وانى لأرى السعادة تقترب منى مع قدومها .

ولكن تنردييه لم يفلت الطفلة ، وراح يتعلل بالأباطيل ، ويقول إن كوزيت مريضة لا تتحمل السفر فى الشتاء . ثم هناك بقايا ديون باهظة متفرقة يجتهد الآن فى تجميع فواتيرها الخ الخ ... فقال الأب مادلين غاضبا :

— سارسل من يأتى بكوزيت . وإذا لزم الأمر ذهبت بنفسى !



وكان المسيو مادلين يذهب ليراها كل يوم مرتين، وفى كل مرة كانت تسأله:
— هل سارى كوزيت قريبا ؟

وكتب بإملاء فانتين هذا الخطاب الذى وقعته بنفسها :

المسيو تنردييه :

سلم كوزيت لحامل هذا الخطاب . وسيتولى دفع كل الديون واللوازم الاخرى . وابعث لك بتحياتى وتقديرى — فانتين ...

وفى غضون ذلك وقع حادث خطير . ومهما اجتهدنا فى نحت صخرة مصيرنا ، ونحينا منها العــروق الســوداء او تجنبناها ، فلا بد للعروق السوداء أن تعاود الظهور ...

الفصل الثانى

كيف أمكن لجان أن يغدو شان CHAMP

وذات صباح كان المســيو مادلين فى مكتبه ، منهمكا فى تصريف بعض أعمال العمودية العاجلة ، استعدادا لاحتمال سفره بنفسه عما قريب إلى مونفرمى. عندما قيل له إن مفتش الشرطة جافير يطلب التحدث إليه . ولم يستطع المسيو مادلين مغالبة شعور بعدم الارتياح عند سماعه هذا الاسم . فمنــذ حادث محضر الشرطة ، وجافير يتجنبه قدر الإمكان ، ولم يره المسيو مادلين قط . وقال العمدة :

— ليدخل !

ودخل جافير ..

ظل المسيو مادلين جالسا قرب المدفأة ، وفى يده ريشة ، وعينه على ملف يقلب أوراقه ويخط عليه التعليقات . ولم يغير من وضعه لدخول جافير . ولم يسعه أن يكف عن التفكير فى المسكينة فانتين ، ولذا كان يبــدو باردا فى استقباله لجافير كالثلج .

وحيا جافير العمدة باحترام ، بينما العمدة مول ظهره عنه ، ولم يرفع بصره إليه ، وواصل تصفح الملف . وتقــدم جافير خطوتين أو ثلاثا من المكتب ، ثم وقف من غير ان يشق حجاب الصمت .

وكان اى عالم بالفراسة له دراية بطبيعة جافير ، ودرس منذ مدة طويلة هذا المتوحش الذى يعمل فى خدمة المدينة ، هذا المركب العجيب من الرومانى والاسبرطى ومن الراهب والرقيب (الجاويش) . هذا الجاسوس الذى يعجز عن الكذب ، وهذا الواشى البكر . ولو كان هذا العليم بالفراسة يعرف نفوره من المسيو مادلين ، واصطدامه به بشأن فانتين ، وتأمل جافير فى هذه اللحظة لقال لنفسه :

— ماذا جرى ؟ واضح ان جافير خارج لتوه من صراع داخلى مع ضميره النقى الضارى .

فجافير كان من الذين لا يجرى فى سريرتهم شىء من غير ان يرتسم محياهم . وكان مثل كل ذوى الطبائع العنيفة عرضة لانقلابات فجائية . ولم تكن سحنته قط فى مثل غرابتها هذا الصباح . وكان عند دخوله قد انحنى امام المسيو مادلين ونظرته خالية من الحقد أو الغضب او التحدى ، ووقف على مسافة خطوات وراء كرسى العمدة المريح ، وهناك وقف وقفة انضباط ، فى تصلب وصبر . وظل صامتا لا تصدر منه حركة فى تواضع حقيقى وإذعان هادىء ريثما يحلو لسيادة العمدة ان يلتفت إليه ، وقد امسك بقبعته فى يده ، وغض بصره ، فى موقف وسط بين وقفة الجندى امام ضابط ووقفة المذنب امام قاضيه . وقد ارتسم على محياه الجرانيتى حزن صامت . وكيانه كله ينضح بالاتضاع والحزم معا ، مع تداع لا يخلو من شجاعة .

واخيرا وضع سيادة العمدة ريشته والتفت إليه نصف التفاتة :

— ماذا وراءك يا جافير ؟

فظل جافير صامتا لحظة ، كأنما ليستجمع نفسه ، ثم رفع صوته وقال بجد وبساطة :

— لقد حدث يا سيادة العمدة حدث ما كان يجوز ان يحدث !

— اى حدث هذا ؟

— احد صغار رجال السلطة اساء الأدب فى حق كبير من رجال القانون والدولة بصورة خطيرة جدا . وقد اتيت بمقتضى واجبى ابلغك الواقعة .

فسأله مسيو مادلين :

— ومن هذا الجانى ؟

فقال جافير :

— أنا !

— لنت ؟

— أنا !

— ومن هو رجل القانون والدولة الذى من حقه ان يشكو من هذا الجانى ؟

— انت يا سيادة العمدة !

فوقف المسيو مادلين ، وواصل جافير كلامه فى صرامة ، وهو ينظر إلى الأرض :

— يا سيادة العمدة . لقد حضرت لأرجوك ان تطلب من السلطات العليا فصلى من الخدمة !

ففغر المسيو مادلين فاه مذهولا وهمان يتكلم ولكن جافير قاطعه قائلا :

— قد تقول إنه كان بوسعى تقـــديم استقالتى . ولكن هذا لا يكفى . فتقديم الاستقالة يصون الشرف ، فى حين اننى اخطات ويجب ان اعاقب . ولذا وجب طردى .

وبعد لحظة صمت أردف :

— سيدى العمدة ، لقد كنت منذ ايـــام قاسيا على بغير حق ، فكن قاسيا اليوم بحق !

فصاح مسيو مادلين :

— ولماذا ؟ ما هذه الأحاجى ؟ ما معنى هذا ؟ واين حدث منك هذا العدوان على شخصى ؟ ما الذى فعلته لى ؟ وما وجه هـــذا الخطا ؟ إنك تتهم نفســـك ، وتطلب ان يحـــل غيرك محلك ...

فقال جافير :

— بل اطلب ان اطرد !

— ليكن ! هذا حسن جدا ! لكنى لا افهم شيئا !

فتنهد جافير من اعماق صدره ، واستأنف الكلام ببرود وحزن معا :

— سيدى العمدة ! منذ ستة أسابيع . على اثر المشادة بسبب تلك الفتاة ، كنت غاضبا فوشيت بك !

— وشيت بى ؟ !

— إلى إدارة الامن العام فى باريس !

ولم يكن المسيو مادلين كثير الضحك — شأنه شـــأن جافير — ولكنه ما إن سمع هذا حتى قهقه عاليا :

— اشكوتنى لإدارة الأمن العام بصفتى عمدة جار على سلطان الشرطة ؟

— بل بوصفك نزيل ليمان سابق !

فاكفهر وجه العمدة ، واسترسل جافير من غير أن يرفع عينيه عن الأرض :

— كان هذا هو اعتقادى . ومنذ وقت طويل خامرتنى افكار . فهناك اوجه شبه ومعلومات وصلتنى ، معلومات عنك عندما كنت فى فافيرول FAVEROLLES وقوة حقويك وكليتيك كما ظهرت فى حادثة فوشليفان ، وبراعتك فى إصابة الهدف ، وساقك التى تضلع قليـــلا ، وهذاء من هـــذا القبيل . وعلى الجملة حسبتك المدعو جان فلجان !

— المدعو من ؟ ... كيف ينطق هذا الاسم ؟

— جان فلجان . إنه نزيل ليمان سابق كنت رايته عندما كنت نائب رئيس حرس السجن فى طولون . وكان جان فلجان هـــذا بعد مغادرة الليمان قد سرق فيما يبدو بيت أسقف ، ثم اقترف سرقة اخرى بالقوة فى الطريق العام من غلام صغير من ابناء السافوا . واختفى اثره منذ ثمانى سنين فلم يعد احد يدرى عنه شيئا وعبثا بحثوا عنه . فتصورت انا .. واقدمت على هذا التبليغ تحت تاثير الغضب !

فقال المسيو مادلين الذى كان قد تناول الملف منذ لحظات ، بلهجة عدم الاكتراث التام :

— وبماذا اجابوك ؟

— باننى مخبول !

— ثم ماذا ؟

— كانوا على حق !

— حسن منك ان تعرف هذا !

— كان لا بد من ذلك ، لأنهم عثروا على جان فلجان الحقيقى !

فسقطت من يد المسيو مادلين الورقة التى كان ممسكا بها ، ورفع راسه وثبت نظره فى جافير وقال بنبرة لا يمكن الإحاطة بوصفها :

— آه !

وواصل جافير كلامه :

— إليك ما حدث يا سيدة العمدة . يبدو انه كان فى الإقليم ، من ناحية « ايى لى هو كلوشيه » AILLY-LE-HAUT CLOCHER رجل كانوا يسمونه الأب شانماتييه CHANMATHIEU . وكان هذا الرجل بائسا جدا ، فلم يلتفت إليه احد . ولا يدرى الناس من اين يعيش هؤلاء . واخيرا ، فى هذا الخريف قبض على الأب شانماتييه لسرقة تفاح يستخدم للعصير ، من .... ليس لهذا اهمية ! المهم انه حدثت سرقة ، وتسلق سور ، وتكسير اغصان

شجرة . وقبض على شانماتييه . وكان غصن شجرة التفاح ما يزال فى يده ، وحبسوه . وإلى هنا والمسالة جنحة عادية . ولكن هاك ما تدخلت به يد العناية . فقد كان ذلك الحبس فى حالة سيئة ، فامر قاضى التحقيق من المناسب نقل المتهم شانماتييه إلى اراس حيث السجن المركزى . وفى سجن اراس هذا يوجد نزيل ليمان قديم اسمه بريفيه BREVET مسجونا لتهمة لا ادريها ، ولحسن سلوكه جعلوه حارس احد العنابر . وما كادوا ياتونه يا سيادة العمدة بشانماتييه حتى صاح بريفيه: « انا اعرف هذا الرجل ! إنه زميل سابق فى الليمان ! انظر فى وجهى جيدا يا رجل ! انت جان فلجان ! » .. وتصنع الرجل الدهشة وتساءل من عساه يكون جان فلجان هذا — فقال له بريفيه: لا تتصنع الخبث! انت جان فلجان! وكنا نزيلين معا ! وانكر شانماتييه . ولكنهم تعمقوا فى التحرى . وبلغتنى هذه المعلومات . واتضح لهم ان شانماتييه هذا كان منذ نحو ثلاثين سنة عامل تقليم اشجار فى عدة قرى ولا سيما فافيرول . وهناك عثروا على اثره . وبعد فترة طويلة شوهد فى اوفرنى AUVERNE ، ثم فى باريس حيث قال إنه عمل نجار عربات وكانت له ابنة غسالة ، ولكن ذلك لم يثبت ، ثم شوهد فى هذا الاقليم . وقبل ان يدخل جان فلجان الليمان ماذا كانت مهنته؟ تقليم الأشجار . اين؟ فى فافيرول . وهذه قرينة اخرى . وكان اسم جان فلجان فى العماد هو جان . واسم عائلة امه ماتييه MATHIEU (متى) . وطبيعى انه عند خروجه من الليمان اتخذ اسم امه ليخفى اسمه الحقيقى فصار اسمه جان ماتييه . ولما ذهب إلى اوفرنى ، وجد الناس ينطقون جان

« شـان » فسموه شانماتييه ، وتركهم الرجل ينادونه هكذا . وبالاستعلام فى فافيرول ، اتضح ان اسرة جان فلجان اختفت ولم يعد احد يعرف أين هى . وانت تعرف ان هذه الطبقات كثيرا ما تختفى فيها معالم عائلات باسرها . ولم يسفر البحث عنهم عن اى طائل . فامثالهم عندما لا يكونون وحلا. يتحولون إلى تراب . ولما كان هذا التاريخ يرجع إلى ثلاثين سنة ، لم يوجد فى فافيرول احد يتذكر جان فلجان . واجريت تحريات فى طولون ، فاذا بهم لا يجدون — غير بريفيه — إلا سجينين كانا يعرفان جان فلجان ، وهما السجينان المؤبدان كوشباى COCHEPAILLE وشنيلديه CHENILDIEU فجىء بهما من الليمان وواجهوهما بالمدعو شانماتييه ، فلم يترددا وقررا — مثلما قرر بريفيه — أن هذا هو جان فلجان . نفس العمر . فسنه ٥٤ سنة . ونفس القامة . ونفس السحنة . انه نفس الرجل . وفى هذا الوقت بالذات ارسلت بلاغى إلى إدارة الامن العام بباريس ، فردوا على بأنى مجنون لأن جان فلجان موجود فى اراس فى يد العدالة . وقد ادهشنى هذا لانى كنت أظن انى وضعت يدى هنا على جان فلجان هذا بلحمه ودمه . فكتبت إلى قـاضى التحقيق ، فاسـتدعانى ، وجىء لى بالمدعـو شانماتييه ...

فقاطعه المسيو مادلين :

— وبعد ؟

فاجابه جافير باسى وصدق :

— سيدى القاضى . الحقيقة هى الحقيقـة . وقـد

اغضبتنى ، ولكن ذلك الرجل كان هو بعينه جان فلجان ، وانا ايضا عرفته .

فقال مسيو مادلين بصوت خفيض :

— أمتأكد انت ؟

فأخذ جافير يضحك تلك الضحكة المؤلمة التى تنم على اقتناع عميق :

— متأكد !

وظل شاردا برهة ، ثم تناول قبضة من نشارة الخشب الناعمة التى تستخدم لتجفيف الحبر من فوق المكتب وقال :

— والآن وقد رايت جان فلجان الحقيقى لا ادرى كيف اعتقدت غير ذلك . واستميحك العفو يا سيدى العمدة .

وإذ قال هذه العبارة فى توسل للرجل الذى اذله منذ ستة اسابيع وسط المخفر وقال له « اخرج ! » . كان جافير المتكبر آية فى البساطة وعزة النفس معا . ولم يرد المسيو مادلين على توسله إلا بهذا السؤال المفاجىء .

— وماذا قال ذلك الرجل ؟

— آه يا سيدى العمدة ! وضعه سيىء ومصيره اسود إذا كان هو جان فلجان ، فالعقوبة مشددة لانه مذنب عائد للجريمة . وقد تسلق جدارا ، وكسر غصنا ، وسرق تفاحا . ولو ان طفلا صنع هذا لكان مجرد شيطنة ومجون . اما ان يصنع هذا بالغ فهو جنحة . وإذا اقترفه نزيل ليمان سابق فهو جناية . وخصوصا ان السرقة مصحوبة بالتسلق . فلا بد من تقديمه لمحكمة الجنايات . والعقوبة ليست السجن بضعة

ايام ، بل السجن المؤبد مع الاشغال الشاقة بالتجديف فى السفن . ثم هناك سرقة الغلام الصغير من السافوا. فالوضع سيىء . والرجل ماكر ذلك المكر الذى اعهده فى جان فلجان . ولا غيره لصرخ وولول ، ولكن الرجل مصر على رفض الاعتراف بانه جان فلجان . ويبدى عدم الفهم لما يدور حوله ، ويتباله ! كم هو بارع فى التمثيل ! ولكن لا اهمية لهذا ، فالأدلة متوفرة . وقد تعرف عليه اربعة اشخاص . فالحكم عليه مؤكد . واحيلت القضية إلى محكمة جنايات اراسى ، وسوف أتوجه للشهادة امام المحكمة ، فقد اعلنت بالحضور .

وكان المسيو مادلين قد جلس إلى مكتبه كما كان ، وتناول الملف ، وراح يقلبه بهدوء . ويقرا ويكتب كالمنهمك فى العمل ، والتفت إلى جافير وقال :

— حسبك ياجافير . فهذه التفصيلات لا تعنينى . نحن نضيع وقتنا وامامنا اعمال كثيرة عاجلة . عليك يا جافير ان تذهب فورا إلى المراة «بينروبييه» BUNERUPIED التى تبيع الاعشاب عند زاوية شارع سان سولف SAINT-SAULVE ، وتقول لها ان تقدم شكواها ضد حوذى النقل بيير شيزنلون CHESNELONG . فهذا الرجل المتوحش كاد يسحق بعربته تلك المراة وطفلها . ولا بد من عقابه . ثم اذهب بعد هذا إلى المسيو شارسليه CHARCELLAY فى شارع مونتر دى شامبينى MONTRE DE CHAMPIGNY ، فهو يشكو لأن ميزاب المنزل المجاور يصب ماء المطر على بيته ويتهدد اساسه . ثم تحقق مخالفات الشرطة فى شارع جيبور

GUIBOURG عند الأرملة دوريس DORIS ، وفى شارع جاروبلان GARRAUD-BLANC عند مدام رينيه رينيه لى بوسيه RENEE LE BOSSE وتحرر محضرا بذلك . ألست ستقوم باجازة ؟ الم تقل لى إنك ستذهب إلى اراس للشهادة فى تلك القضية فى مدى ثمانية ايام أو عشرة ؟ ...

— بل قبل هذا يا سيدى العمدة .

— فى اى يوم إذن ؟

— اظننى قلت لسيادة العمدة إن المحاكمة ستجرى غدا ، وإنى ساستقل حافلة الليلة .

فندت عن المسيو مادلين حركة لم يلحظها جافير . وساله :

— وكم يوما ستستمر هذه القضية ؟

— يوما واحدا على الأكثر . وسوف يصدر الحكم مساء غد على الأكثر . ولكنى لن انتظر سماع الحكم . ومتى أدليت بشهادتى عدت إلى هنا .

فقال مسيو مادلين :

— هذا حسن .

وصرف جافير بإشارة من يده . ولكن جافير لم ينصرف ، وقال :

— عفوا يا سيدى العمدة .

فساله المسيو مادلين :

— ماذا هناك ايضا ؟

— بقى شيء اريد ان اذكرك به . .

— وما هو ؟

— إننى ينبغى ان اعزل !

فنهض المسيو مادلين قائلا :

يا جافير ! انت رجل شريف ، وانا اقدرك . وانت تبالغ فى غلطتك هذه . ثم إن هذه إساءة تخصنى انا ، اعلم يا جافير انك جدير بالترقية لا بالعقاب . واريد ان تحتفظ بمنصبك .

فنظر جافير إلى المسيو مادلين بعينيه الصريحتين اللتين كان المرء يرى فى اعماقهما ضميره الصارم العف ، وقال بصوت هادىء :

— سيدى العمدة . لا يمكننى أن اجيبك إلى هذا .

فقال المسيو مادلين :

— وانا اكرر قولى إن هذا الأمر يعنينى انا .

ولكن جافير تشبث بفكرته وقال :

— اما عن اننى ابالغ ، فانا لم ابالغ . وإليك كيف افكر فى الأمر . لقد ارتبت بك بغير حق ، وهذا ليس شيئا ذا بال . فمن حقنا نحن الشرطة ان نرتاب ، وإن كان من الخطأ احيانا ان نرتاب فيمن فوقنا . ولكننى تحت تأثير الغضب ، وبدون ادلة ثابتة ، ابلغت عنك انت الرجل المحترم والعمدة ممثل القانون انك نزيل ليمان ! وهذا شيء خطير . خطير جدا ! لقد اهنت السلطة فى شخصك ، وانا من خدام السلطة ! ولو فعل مثل هذا احد مرءوسى لقررت عدم صلاحيته للخدمة

وطردته . اسمع منى كلمة اخرى يا سيادة العمدة . كثيرا ما كنت انا قاسيا فى حياتى ضد الآخرين ، ولكن ذلك كان عدلا، فهو خير . وما لم اكن قاسيا هذه المرة فى محاسبة نفسى لما كنت عادلا . أفيجوز لى أن اغض الطرف عن جرمى وانا اقسو على جرائم غيرى ؟ كلا ! لا يحق لى عقاب الآخرين وترك نفسى بلا عقاب ! لأكونن إذن بائسا شقيا ! ويكون من يمقتوننى فى هذه الحالة على حق . يا سيدى العمدة انا لا اتمنى ان تعاملنى بطيبة . وكم كانت طيبتك مع غيرى تثير سخطى وتجعل الدم يغلى فى عروقى ! ولذا لا يحق لى ان اتقبلها لنفسى ! هذه الطيبة التى تنصر فتاة عمومية على برجوازى من ذوى الأملاك ، ورجل الشرطة على العمدة ، والأدنى على الأعلى ، اسميها الطيبة السيئة ! ومثل هذه الطيبة تفسد المجتمع ! يا إلهى ! ما اسهل ان يكون المرء طيبا ، اما العدالة فصعبة عسيرة التحقق ! ولو صح انك من كنت اظنه ما كنت طيبا معك . ولرايت عندئذ ما افعل بك ! لا بد يا سيادة العمدة ان اكيل لنفسى بعين المكيال الذى اكيل به للآخرين ! وكنت كلما قسوت على مذنب اقول لنفسى : « الويل لك منى يا جافير اذا ضبطتك متلبسا بخطأ يستوجب العقاب ! » . فلتطردنى يا سيادة العمدة ، لا يضير ضميرى هذا ، فانا لى ذراعان قويتان ، وساعمل فى الأرض ، ولن يضيرنى هذا . إن صالح الخدمة فى ضرب المثل الصالح . ولذا التمس منك طرد المفتش جافير من الخدمة !

قال ذلك كله بتواضع وانفة ، بيأس واقتناع ، فاضفى ذلك عليه عظمة من نوع غريب . عظمة الأمانة والشرف .

وقال المسيو مادلين :

ــ سنرى ...

ومد إليه يده ليصافحه ، فتراجع جافير وقال بشراسة :

ــ هذا شيء لا يجوز يا سيادة العمدة. العمدة لا يصافح واشيا متجنيا ! وما دمت قد أسأت استخدام منصبى فأنا لست إلا واشيا حقيرا .

ثم انحنى انحناءة عميقة واتجه إلى الباب . وهناك التفت وقال وهو يغض الطرف :

ــ سيدى العمدة . سأستمر فى عملى إلى ان يحل غيرى محلى ...

وخرج . وظل المسيو مادلين شاردا ، يصغى لخطواته الثابتة الواثقة وهو يبتعد فى الدهليز ...

٤٣٧٩

رقم الايداع : ٦ ــ ٨٠. ــ ١٦٣ ــ ٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة

٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية

تليفـــون : ٨٢٦٢٨٠. القــاهرة



مطبوعات كتابى
إصــــدار جــديد

عزيزى القارئ ..

فى الكتاب السابق قدمت لك الجزء الأول من هذه الترجمة الكاملة الأمينة (أول ترجمة « مصرية ») لملحمة فيكتور هيجو الخالدة « البؤساء » التى لم تترجم ترجمة كاملة فى مصر من قبل .. وفيها يبرز هيجو كمدافع عن الضعفاء والمهزومين والمضطهدين .

وقد عايشنا فى الجزء الأول كلا من مسيو ميرييل كاهن مدينة DIGNE التى تقع فى جنوب فرنسا ، على الطريق بين (طولون) و (باريس) ، وهو الكاهن الذى تولى منصبه منذ عام ١٨٠٦ ، وعاش فى تلك المدينة الصغيرة مع شقيقته الانسة « بابتستين » ، وكان فى الخامسة والسبعين من عمره .. ثم تعرفنا على زائره المدعو « جان فالجان » الذى قضى فى السجن تسعة عشر عاماً ، عقاباً له على سرقة رغيف من الخبز ، وعلى محاولاته المتكررة للفرار من السجن .. ورأينا كيف عجز السجين عن العثور على عمل أو مأوى (بعد خروجه من السجن) بسبب صحيفة سوابقه التى وقفت عقبة فى طريق توبته وتأقلمه مع المجتمع .. فلما فتح له الكاهن باب بيته فآواه وأطعمه ، عض التعس اليد التى أحسنت إليه ، فسرق الشمعدان والأوانى الفضية من بيت القسيس تحت جنح الظلام وحين ضبطه رجال الشرطة وأعادوه إلى القسيس ، كرر هذا المحسن موقفه النبيل فزعم للشرطة أنه أعطى هذه الأوانى للسارق بمحض اختياره ، كهدية تعينه على الحياة .. ثم توالت أحداث الجزء الأول فتعرفنا على المدعو « تيناردييه » وزوجته ، ثم تعرفنا على « فانتين » ، وابنتها « كوزيت » ، وعلى الرجل المثالى مسيو « مادلين » .. ثم رجل الشرطة القاسى « جافير » الذى اشتبه فى أن « مادلين » هو المجرم السابق « جان فالجان » ! فأخذ على عاتقه أن يطارده حتى يكشف حقيقته ويعيده إلى السجن من جديد ..

واليوم تعال معى نتابع أحداث الرواية الشائقة فى هذا الجزء الثانى منها .



حلمى مراد

١٠٠ قرش